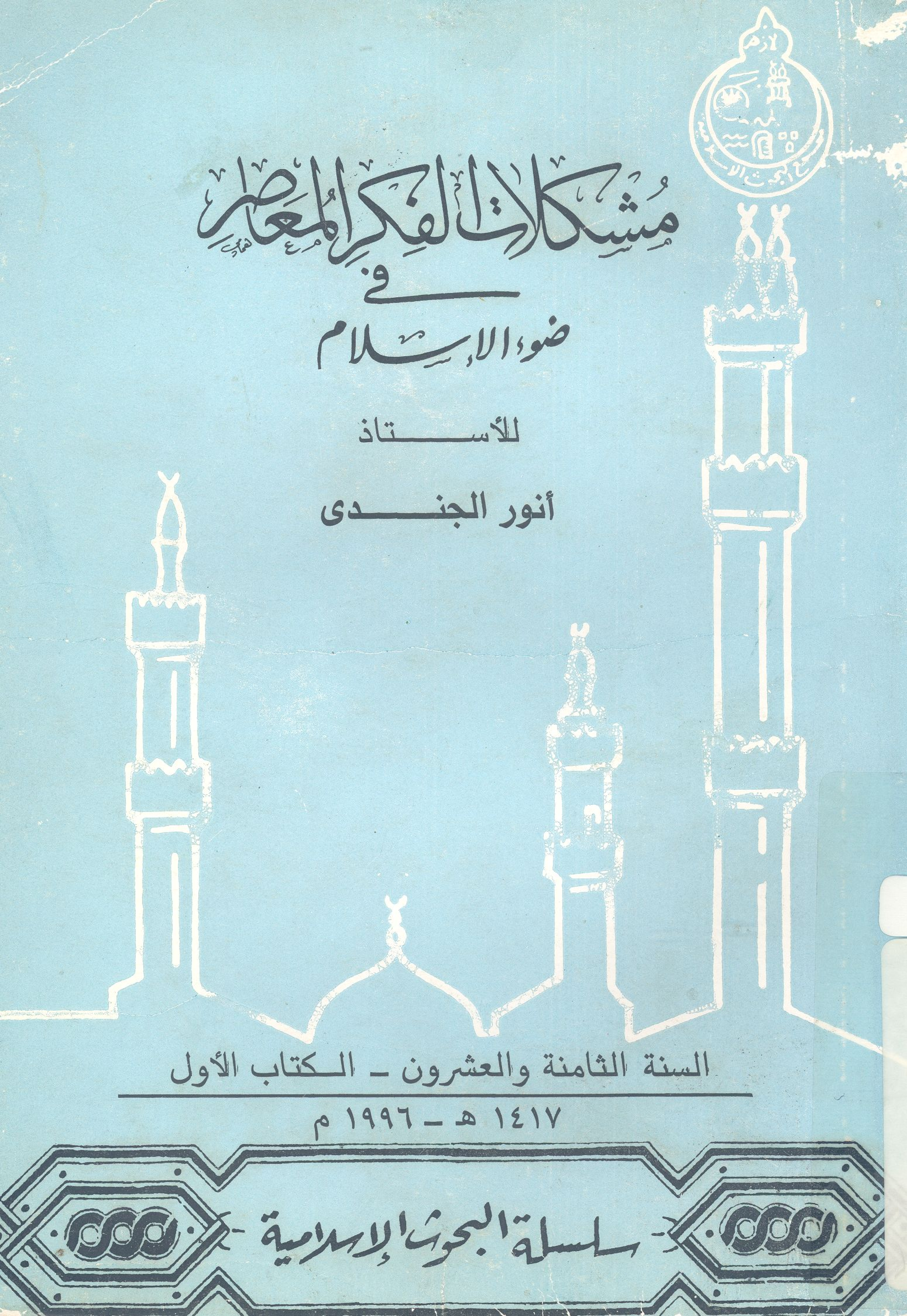


مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام

للأستاذ
أنور الجندى

السنة الثامنة والعشرون - الكتاب الأول
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
سلسلة البحوث الإسلامية

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة



مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام

للأستاذ

أنور الجندى

سلسلة البحوث الإسلامية

السنة الثامنة والعشرون ـ الكتاب الأول

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م

بســم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الطبعة الثانية

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد السيد أحمد سعود
وكيل الأزهر والأمين العام لمجمع البحوث الإسلاميـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعـــــد :ـ

فإن الإسلام يتعرض دائما الى حملات ضارية تشكك فى تعاليمه محاولة تضليل أتباعه ، وتسوق شـبهات زائفة تبدو كأنها حقائق ، وظل خداع هذه الشبهات يبث سمومه لزلزلة الثقة بمفاهيمنا وعقائدنا ٠

وكان لابد من كشف هذا الزيف ، ودحض هــذه الشبهات ، وبيان الحق الواضح ، حتى ينكشف أمام الأجيال من أمتنا هذا الباطل الذى يحاول أتباعـه بكل السبل الانتصار له ٠

ومن فضل الله ـ سبحانه ـ أن هيأ لهذا الأمـر من يدافع عنه من العلماء الأجـلاء ، فقامـوا بتصـحيح المصطلحات ، وتحرير القيم من المفاهيم الوافـدة ، والثقافات الغريبة عنا .

وهذا الكتاب (مشكلات الفـكر المعاصر فى ضـوء الإسلام) قـد عرض الى المفاهيم العديدة وأبان موقف الإسلام من كل منها ، فالإسلام دين يقدر الحـرية ، والعقل ، والتقدم ، وكل قيمة رفيعة أصيلة، والإسلام يضع كل هذه الأمور فى مكانها الصحيح ، ويميز الحق من الباطل .

لهذا فإننا نقدم هذا الكتاب فى طبعته الثانية راجين من الله أن ينفع به وأن يجزى مؤلفه خير الجزاء .

والله الهادى إلى أقوم السبل .

الشيخ / أحمد السيد أحمد سعود

وكيـل الأزهــر

والمشرف العام على مجمع البحوث الإسلامية

بســم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

للدكـتور مهــدى عــلام

عضو مجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهــدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، صاحب الشريعة ، وهادى البشرية الى ما فيه خير الدين والدنيا .

وبعد : فيسرنى أن أستجيب لرغبة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ، الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، أن أقدم للقــراء كتاب :

« مشكلات الفكر المعاصر فى ضوء الإسلام »

للأستاذ أنور الجندى

ولما كان الإسلام أعز ثروة فى أيدينا ، كــان لزامــا علينا أن نرعاها من الضياع ، وأن نصونها من عوامل

الانحلال والهدم التى يسلطها عليها أعداء حاقدون ، أو جهال مستهترون ، أو مخدوعون مستسلمون .

وعصرنا الحديث ملىء بالتيارات الفكرية ، والنزعات المذهبية ، التى تنتشر بين ناشئتنا ، وتحتاج الى نظرة فاحصة تميز الخبيث من الطيب . فالإسلام لا يعادى جديدا الا اذا كان ضلالا ، ولا يصد عن تطور الا اذا كان انحدارا .

وقد عرض المؤلف فى هذا الكتاب الى المفاهيم المتعددة التى يتكلم عنها دعاتها ، فحددها ، وأبان موقف الاسلام من كل منها . فالاسلام دين الحرية، ودين العقل ، ودين التطور والتقدم ، ودين البطولة، ودين كل قيمة رفيعة أصيلة ، ولكن الاسلام لا ينخدع بكل ما يذكر باسم الحرية ، واسم العقل ، واسم التطور والتقدم ، واسم البطولة ، بل لابد من تمييز الحق من الباطل ، والأصيل من الزيف .

ان الحياة حديقة جميلة ، ومبادىء الاسلام أجمل أزهارها ، ولكن فى طبيعة النمو النباتى ، وتنقل البذور ، أن تنمو بعض الحشائش الضارة ، وتلتف

حول هذه الأزهار • ولابد لهذه الحديقة من بستانى يتعهدها بالرعاية فيستأصل هـــذه الحشائش ، حتى لا تلتف حول الأزهار فتقتلها أو تضعفها •

والأستاذ أنور الجندى بستانى خبــير فى ميـــدان البحث الدينى والأدبى • ولست أشك فى أن قـــراء كتابه هذا سيضمون الى استمتاعهم بآرائه ، شعورهم بتقديره والثناء عليه •

فليبارك له الله تعالى فيما كتب ، وليبارك لهم فيما يقرءون •

مهـدى عـلام

●●●

مـدخـل إلى البحث

إن حقائق كـثيرة ، ووثائق عـديدة ، تكشفت فى السنوات الأخيرة ، لها أثر كبير على كثير من الآراء والنظريات والقضايا التى كانت تعد فى نظر الكثيرين من المسلمات فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ ، بينما هى شبهات زائفة صيغت فى صورة براقة خـادعة ، فبدت كأنما هى حقائق ، واستمـر خداعهـا زمنـا طويلا ، وكان بعيد الأثر فى تحقيق أهداف التغريب والغزو الثقافى ، الرامية الى انتقاص قيمنا وزلزلـة الثقة بمفاهيمنا وعقائدنا .

ومن شأن هذه الحقائق أن تدعونا الى إعادة النظر من جديد فى آفاق الفكر الإسلامى والثقافة العـربية، وموقفها من الفكر الوافد .

ومن أخطر ما تكشف فى سنوات ما بعد الحـرب العالمية الثانية تلك المخططات الاستعمارية الصهيونية السرية ، الرامية الى تدمير المجتمعات الإنسانيـة ، وخاصة المجتمع الإسلامى العربى ، عن طـريق طرح

عديد من النظريات والمذاهب الوثنية والمادية، المتصلة بالنفس الإنسانية ، والأخلاق والعقائد والتاريخ واللغة ، ومقارنات الأديان والتربية .

وقد قصدت هذه المخططات الى محاولة تغريب العرب والمسلمين ، وتفريغ الفكر الإسلامى العربى من مقوماته وقيمه وذاتيته ، فى بوتقة الفكر العالمى الوثنى المادى ، والعمل على إسقاط الفكر الإسلامى والقيم الإسلامية ، وإخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقدراتهم ، وتذويبهم فى الأممية والعالمية .

وقد جرى ذلك عن طريق خلق دائرة براقة تحمل لواء ما يسمى بالحرية الفكرية والعصرية ، ثم عمدت هذه الدعوة الى إعلاء شأن الماضى الفرعونى والأغريقى والجاهلى العربى ، وإحياء الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السريانية والمجوسية والباطنية ، وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس .. إلخ .

ثم عمدت هذه الخطة الى إخراج التاريخ الإسلامى وبطولاته عن مفاهيمها الإسلامية ، وذلك بالتشكيك

فيها أو إخضاعها للمفهوم المأسوى الأغريقى الـــذى يختلف اختلافا واضحا مع مفهوم التوحيد الإسلامى .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن هذه الخطة شملت طرح نظريات خطيرة فى مجال العبقرية والأجناس ، وفى مجال علـم الـدين المقارن ، وفى مجـال تزييف الأخلاق والقيم ومفاهيم الحضارة والتاريخ والأدب.

وجرى ذلك كله من خلال نقطة انطلاق واحدة هى (المادية) التى ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية ، وتدعو الى بعث الوثنيات وأفكار العنصرية والأباحية والإلحاد .

* * *

ولقـد وضعت هـذا المخطط قـوى كـثيرة ، هى الصهيونية ، والاستعمار ، والمادية ، وهى قوى كلها تجمع على العمل لسحق المسلمين والعرب ، والسيطرة على مقدراتهم وثرواتهم مـع الحيلولة بينهـم وبين امتلاك إرادتهـم أو استعادة قوتهم وذاتيتهم .

وقد انطلقت هذه القوى من نقطة واحدة هى :

إزالة شخصية (عالم العرب والإسلام) وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الأممية والعالمية ، واحتواء مفاهيمه وقيمه ، حتى يصبح تابعا ليس من جهة مقدراته وثروته فحسب ، بل من خلال وجوده وكيانه وشخصيته •

ولقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية والدولية والصهيونية واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات والمحافل الماسونية أداتها ، فقد انبث خريجو هذه المعاهد والمحافل ، فسيطروا على بعض وسائل الصحافة والثقافة والمدرسة ، واتخذوا منها فى بعض الأقطار أداة على تغيير فكر هذه الأمة وتزييف مضامينه ، وبعث الفلسفة الماسونية المادية التى تستهدف تدمير القيم والأخلاق والأديان ، وطرح عشرات من الشبهات والأشواك والأخطاء أمام المثقفين •

وقد استطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى فى النفوس والعقول ـ آنذاك ـ لأن الاستعمار قد فسح لها الطريق ، حين عمل على تحطيم الحصانة النفسية والروحية ، التى كانت تحمى النفس العربية الإسلامية

من الغزو ـ حين ألغى دراسة الإسلام والعربية والقرآن من مناهج التعليم المفروضة ، والتى كانت جميعها أو أغلبها تدرس بلغة المستعمر : الانجليزية ، فى مصر والسودان وفلسطين والعراق ـ والفرنسية : فى المغرب كله وسوريا ولبنان .

فقد استطاعت قوى الاستعمار حين سيطرت على مناهج التعليم أن تفرغها من مفاهيم الإسلام الصحيحة وأن تباعد بين الشباب المتعلم ، وبين منهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى ، ثم حولت مفهوم الإسلام الى مفهوم لاهوتى قاصر ، لا يمثل عظمة الإسلام الجامع (دينا ونظام مجتمع) .

ومن ثم دخلت مفاهيم الإسلام زيوف كثيرة ، واختلطت بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الوضعية غير السماوية ، التى خرجت عن التوحيد والتقوى .

* * *

لقد كان الإسلام فى ذاته يحمل من الأصالة ما يجعل فكره متميزا عن فكر أى أمة أخرى ، هذه الأصالة التى

استمدها من وحى السماء ورسالة النبوة وكلمات الله المنزلة .

ولقد كانت نقطة البدء فى هذا المخطط كله كلمة واحدة : هى إخراج المسلمين والعرب من مقومات فكرهم ، هذه المقومات التى أمدتهم فى كل أزمة وما تزال وستظل تمدهم ، بالقوة والصلابة والصمود فى وجه كل غزو وإزاء كل قوة خارجية .

وما دام المسلمون والعرب مستمسكين بمقومات فكرهم التى استمدوها من القرآن أساسا ، فإن أى قوة غازية أو سيطرة تعجز ـ كما عجزت مرات على طوال التاريخ الإسلامى ـ عن أن تقف فى وجههم ، وإنهم إذا عادوا الى مصادرهم ومنابعهم فإنهم سيكونون قادرين على الصمود فى وجه أعتى قوى الأرض ، ومواجهتها وسحقها .

ولذلك فإن العمل الخطير ـ فى تقدير حركة التغريب ـ هو تزييف هذه المقومات وإشاعة الشبهات حولها ، ومسخها وضربها بمفاهيم أخرى على سبيل خلق الشكوك والريب ، وكذلك إفساد المصادر نفسها بالإسرائيليات القديمة والجديدة ، وإفساد القائمين

على هذا الفكر بالتبعية والولاء والطموح الى المناصب والثراء ، وإفساد من تلقى اليهم بتفريغ منـــاهجهم المدرسية من (روح الإسلام) •

●●●

ومن ثم يصبح ما يتبقى من مظاهر الإسلام كـدين لاهوتى بدون قيمة حقيقية ولا قدرة له على التصحيح ومن ثم فهى لن تحمى هـذه النفوس والعقـول مـن أهواء المغريات التى يطرحها بريق الحضـــارة تحت الأضواء وحول النار ، نار الشهوات واللذات والمتـع والمغريات مع سريان مذاهب الإباحة والإلحاد، وتشبع الثقافات بها ، وترويج القصص الجنسية لها •

ومن شأن وسائل الإغراء بالصورة العارية والكلمة المكشوفة ، أن تقدم فى هذا المجال ما لا يـدع للنفس العربية الإسلامية ولا للعقل العربى الإسـلامى مجالا للبحث عن قيم الأخلاق والإيمان والتوحيد ، ظنا منهم أنها ستذوب كلها تحت ضربات معاول الهدم الصارمة، ذلك هو لب المخطط الخطير الـذى فرضته القـوى الاستعمارية الصهيونية على عالم العرب والإسلام ،

واستطاعت خلال خمسين عاما أن تغرقها فيه إغراقا، بينما زحفت قوى الغزو الصهيونى واستطاعت فى غفلة مؤقتة أن تسيطر على فلسطين ، فالقدس .

وإن أخطر ما يواجه العرب والمسلمين اليوم أنهم قد يتحركون من داخل دائرة الفكر الذى فرضه عليهم النفوذ التغريبى الخطير ، ولذلك فإن أول علامات اليقظة والمقاومة هى التحرر من مقاييس التغريب ومذاهبه والمفاهيم التى حاول أن يفرضها - وهى زائفة أصلا - من أجل تدمير النفس العربية الإسلامية، واحتواء العقل العربى الإسلامى .

إن أول علامات اليقظة أن تكشف هذا المخطط ، وأن تعيد النظر فى المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المنحرفة والشبهات المطروحة (وهذا ما سنحاوله فى هذه الدراسة) ذلك أن أصالة الذاتية العربية الإسلامية الجذور ، الصلبة المؤمنة ، تتمثل فى أنها لم تستسلم أبدا ، وأن هناك ضوءا كاشفا أخذ يدحض هذه الشبهات ، وهو ضوء قد امتد على الزمن ولم يتوقف ولم ينقطع ، استيقظ قبل الغزو الاستعمارى وما تزال الأحداث تمده بالقدرة على المقاومة .

ولقد كانت أزمة ١٩٦٧ واحتلال القدس عاملا عاما فى التفاته الى الحقيقة التى ليس بعدها حق ، التفاته الى المصادر الأصيلة لوجوده وكيانه وحياته ، فقد كشفت له الأحداث والتجارب أن بلسم جراحه، وضياء روحه لن يكون إلا من داخله ، لن يصل اليه عن مصدر آخر غير المصدر الأول ، الذى تشكل منه عندما بزغ ضوء الإسلام ، وأن آية النصر ما زالت هى الاستغداد من المنابع الأصيلة ، وأن أمة ما لن تستطيع أن تعود الى الحياة ، ولا أن تصمد فى وجه الغزاة إلا اذا التمست الضياء من أعماقها ، من داخلها ، من كنزها المدخر ، الذى إن زهدت فيه حينا وتطلعت الى ما فى أيدى الآخرين ، فإنها قد آمنت أخيرا بعد الصدمات والتضحيات أنه لا سبيل أمامها إلا التماس المنابع الفنية ، والمصادر الثرة التى كونت الذاتية الإسلامية العربية وشكلتها أول مرة ، ووضعت لها مقومات حياتها وقوتها وانبعاثها مرة أخرى ، كلما المت بها الأحداث وادلهمت حولها الخطوب ، إن المصدر الحقيقى هو « القرآن » ونقطة البدء هى «التوحيد»؛

وفى هذا الضوء ننظر فى هذه الشبهات التى طرحها التغريب ، ونعيد النظر فى هذه القضايا والنظريات .

* * *

ونحن نذكر هذا جيدا كيف قام كفاح المسلمين ، فلم يتوقف لتحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الثقافة والعقلية التى سلطها عليه الفرس واليونان والهنود ، كان إيمانهم بابتعاث شخصيتهم الإسلامية العربية ، والحيلولة دون أن تذوب وتتلاشى ، هو مصدر كل نصر وقوة وحياة .

إن المحاولات الدائمة لإخراجنا من إطار فكرنا الإسلامى العربى لم يتوقف منذ أكثر من خمسين عاما وهى تتشكل كل يوم فى صورة أو أخرى ، حمل لواءها الاستعمار والتبشير والاستشراق والشعوبية والتغريب والغزو الثقافى ، وحاولت انتهاز كل نكبة أو نكسة لتجديد دعوتها المسمومة التى تحاول أن تلقى أمتنا فى تيه مظلم لا ضياء معه ، ولا نور حين تدعونا أن نتحرر من كل المقدسات والقيم ، وأن نتخلص من الماضى كله وأن نزدرى العقائد ومفاهيم الأديان السماوية ، وتعمل على دفع النفس العربية الإسلامية

عن الخروج من ذاتيتها ومزاجها النفسى بخروجها عن الأخلاق والإيمان والتوحيد .

ولقد جرت منذ نكسة ١٩٦٧ أقلام كثيرة بكلمات ماكرة ، تبعث اليأس وتدعو إلى الخروج عن القيم والأديان وتزدرى التاريخ والتراث والشريعة واللغة، وهى دعوات باطلة لأنها تصدر ممن لا يؤمنون بهذه الأمة ولا يريدون لها الخير .

ولقد طرحت هذه الدعوات أفكارا ومذاهب وآراء أثارت الشبهات فى صدور بعض شبابنا وعقولهم ، فحق لأداة التصحيح أن تظهر ضياء الحقيقة ، وأصبح ضروريا أن تحرر القيم وتصحح المفاهيم ، وتكشف البواعث والغايات التى تكمن وراء هذه الشبهات المسمومة .

إن الهدف هو « تغريب الفكر الإسلامى » ووضعه فى قيود الوثنية والمادية والإلحاد والإباحية .

ولكن الفكر الإسلامى صاحب الأصالة المستمدة من جوهره الناصع القرآنى ، ومن ماضيه الطويل وجذوره العميقة الثابتة قادر على أن يدفع عن نفسه هذه

الموجة الطاغية كما دفع الموجات المتوالية السابقة وانتصر عليها ، ذلك لأنه يستمد من معين التوحيد ومن الحق ومن الفطرة ومن القرآن الذى يفرق بين الحق والباطل ، والذى نزل للإنسانية هاديا فى حيرتها فقد جاء القرآن تصحيحاً لكل المفاهيم والمذاهب والدعوات التى حرفت مفهوم الرسالة السماوية الحقة ، التى جاءت على أيدى رسل الله ، فكشف عن كل عوامل التحريف ووضع لنا القواعد التى لا تبلى فى مواجهة أخطار التغريب والتزييف .

لقد أقام الإسلام عالما من الحق والإيمان فى مواجهة عالم الباطل ، فحق عليه أن يجالد أخطار الوثنية والإلحاد ، ولا يتوقف عن المجالدة على مدى الزمن صامدا مستمدا أسانيده وحججه من ذلك المعين الصادق .

لقد جاء الإسلام بعد أن تشكلت للوثنية المادية فلسفة ومناهج ومذاهب كشف عنها القرآن وزيفها وأبان وجه الحق فيها ، وما تزال موجة الوثنية تقوم فى غيبة الحق وتعلو وتنتشر جناحها ، ثم يجىء المصلحون الأبرار من علماء المسلمين ، فيكشفون الزيف ويردون الحق الى نصابه .

ونحن الآن نعيش فى موجة ضارية من هذه الموجات استطاعت أن تلبس لباس العلم والفلسفة ، وأن تقيم باطلها على أساليب براقة خادعة ، فى عالم اضطربت مقاييسه ونظمه ، فحق على المسلمين وفرض عليهم أن يتقدموا ويحملوا مشعل التوحيد والإيمان لتحرير المناهج وتصحيح الآراء ، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، ويتم الله نوره ويعلى عالمه ، ويذل عالم الوثنية المادية .

وإذا بدا أن المادية والوثنية مسيطرة اليوم فإنما هى جولة من جولات الباطل ثم ينكشف الحق واضحاً والحق ظاهراً .

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته)

* * *

إن أهم أهداف الفكر الإسلامى فى العصر الحاضر وكبرى تحدياته هى :

تصحيح المصطلحات ، وتحرير القيم من مفاهيم وافدة أو زائفة تريد أن تحل محل المفاهيم الأصيلة،

وسنة مخططات التغريب ترمى الى إحلال « مفاهيم دخيلة » بـدلا من « المفاهيـم الأصيـلة » التى يراد إبعادها عن مجال الحياة والفكر .

ذلك أن أولى مهام الغزو الثقافى هو تزييف الحقائق وتمويهها وإفساد مضامينها ، ولذلك كانت صيحـة حـركة اليقظـة منذ أكـثر من مائة عام هى المناداة بالتماس الأصـول والمنابع ، وأن لا تمتص أى شىء قبل عرضه على مقاييس فكرنا ، ولقد كان المسلمون والعرب على مدى التاريخ ، كلما تدلهـم الأحـداث وتحيط بهم أزمات الغزو الخارجى يتنادون بالعودة الى المنابع ، فالتماس المنابع هو الأصالة وهو الضوء الحقيقى الهادى الى الطريق ، دون شك أو ريب ، ودون خوف أو تردد .

(تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتى) .

لقد طرحت فى السنوات الأخيرة « مفاهيم » جديدة وافدة لقيم عالمية ، وجرت محاولات لتصوير هـذه المفاهيم بصورة علمية لها بريق متوهج وطابع لامع . وذلك فى محاولة لإحلالها فى مكان مفاهيمنا الأصيلة

لتلك القيم . ولقد بدا بعد وقت ليس بالقصير (عدم تقبل) الذاتية العربية الإسلامية والمزاج النفسى للعرب والمسلمين لهذه المفاهيم الوافدة مهما بدا من بريقها وازدهارها .

* * *

وقد اتصلت هذه المفاهيم بكثير من قضايا الفكر وخاصة منها نظريات التطور ، والحرية ، والعقلانية ومفهوم القيم والتقدم والتجديد والأصالة ، وعلاقة مناهج العلوم بالإنسانيات والمجتمع .

كما اتصل ذلك بمفاهيم البطولة والنبوة ، ومفاهيم المأساة والتراجيديا والفن ، واتجه أكثر الحديث نحو الشباب فيما يتصل بلقاء الأجيال أو صراعها ، وفيما يتعلق بالأساطير والأدب ومفهوم الحضارة ، وامتد الى ما يتصل بالترجمة وبالمصطلحات المتعددة كالضمير والنرفانا وغيرها .

وتشكل هذه المجموعة من المفاهيم قضية واحدة تتفرع الى قضايا ، ويمكن أن يطلق عليها جميعا « قضية تصحيح المفاهيم » وتحرير القيم والكشف عن أخطاء المصطلحات .

ونحن أمام هذه المفاهيم على رأى واضح محدد :

هو أن لكل قيمة من القيم مفاهيم مختلفة ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التى تستمد مفاهيمها من تراث طويل قوامه عقائد وتاريخ ولغة ومزاج نفسى .

هذا فضلا عن أن ما يقدم لنا ليس حقيقة علمية أو مفهوما عالميا مقررا يمكن تطبيقه على النفس الإنسانية عامة ، أو على المجتمعات قاطبة ، وما من قضية تطرح فى مختلف مجالات الفكر والعقائد والثقافة إلا ولنا « نحن المسلمين » نظرية أصيلة فيها ومفهوم شامل ، ومنهج متكامل ، وما من جديد يمكن أن يقال إلا ويجب النظر فيه فى ضوء مقاييسنا وقيمنا ، ولقد كانت النظرة الإسلامية عادية للبشرية كلها منذ أن فجرت طاقاتها قبل خمسة عشر قرنا لأنها استمدت مفهوم قيمها من مصدر واحد هو النظرة الإنسانية القائمة على التوحيد والإيمان بالله والتى اتخذت من الالتزام الخلقى قاعدة لحركتها .

لقد قدم الإسلام للبشرية منهجا متكاملا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة ، وهو منهج تطبيقى

عملى وليس منهجا نظريا أو مثاليا ، هو منهج القرآن القائم على الأصالة والربانية والحق .

فنحن فى كل مجال يتحتم علينا أن نقف ونسأل عن مفهومنا لكل ما تطرحه النظريات المختلفة .

إن النظرية الوافدة دوما هى من صنع قوم آخرين، أقاموها على مقياس مجتمعهم وابتدعوها فى ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعا هذه التحديات التى ربما دفعتهم الى الانفصال عن مناهج الأديان والتماس الحلول من الفلسفات ، أما نحن ، فإن الأمر لدينا يختلف .

* * *

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الوافد نتيجة للاستعمار وقامت عن طريق إرادة مقيدة فى ظل سيطرة النفوذ الأجنبى على التعليم والصحافة والثقافة ، ولم تكن هذه التبعية اتجاها طبيعيا ولا رغبة أصيلة .

ولقد كان الفكر الإسلامى ـ دائما ـ ولا يزال متفتحا لثمرات الفكر البشرى ، ولكنه كان قادرا ـ حتى فى

أشد مراحل الضعف والتخلف ـ على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون انصهاره فى الفكر العالمى •

* * *

ونستطيع هنا أن نضع واحدة من الوثائق الكثيرة التى تكشف هدف الحملة على الإسلام وهى ما نشرته جريدة « التيمس » فقالت :

« كان الاعتقاد قديما أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء وقد يتقدم الى الحضر ، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية وأن يصل الى جنوب أفريقيا •

وقالت: ويختلف الغربيون فى اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الإسلام فى أفريقيا فمن قائل إن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير (أى الإسلام) فى الخطوط التى رسمها له الاستعمار •

بينما يرى آخرون ضرورة (الحد من تقدم الإسلام) عن طريق نشر البدع والخرافات (أى نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام لإفساده وإزالة حقيقة الإسلام عنه على

بقاء اسم الإسلام عنوانا له) حتى يكون ذلك بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد » .

وهكذا يؤكد هذا النص أن هناك محاولتين فى مواجهة الإسلام (الأولى) أن يتحرك الإسلام فى الخطوط التى رسمها له الاستعمار أى فى دائرة التغريب والغزو الثقافى ومع العمل الدائم للتبشير والاستشراق .

والمحاولة (الثانية) هى : نشر البدع والخرافات وتحريف المفاهيم والقيم وهذا ما يطلق عليه (هدم الإسلام من الداخل) وإن نظرة واحدة الى هدف التغريب كما صوره دهاقنة الاستعمار والنفوذ الغربى ليؤكد هذا المعنى فهم يهدفون منه الى (إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية وتنفر من الدين وتعمل على إبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه) ، وبذلك تعمل من خلف ستار دون أن تواجه المشاعر الدينية بالعداوة السافرة وعندهم أن أبرز معالم التغريب هى غرس مفاهيم ثقافية وتربوية فى نفوس المسلمين تخلق فيهم نزعة الاحتقار لقيمهم والاعتزاز بقيم الغرب .

وتتصل هذه المفاهيم بتحريف التاريخ الإسلامى وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى لعبه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ومحاولة خلق شعور بالنقص فى نفوس المسلمين يحملهم على الرضا والخضوع للنزعات والمذاهب الغربية ، وكذلك العمل عن طريق المناهج الدراسية ووسائل الثقافة والفكر على توهين القيم الإسلامية والغض عن اللغة العربية وتغييب هذه القيم وإحلال قيم أخرى بدلا منها بحيث تصبح هذه القيم الجديدة معتقدات عامة .

وبالجملة فالتغريب محاولة لحمل (عالم العرب والإسلام) على قبول ذهنية الغرب والانصهار فى بوتقة فكره ومفاهيمه والتحرك من خلال المناهج والأساليب والرسائل التى فرضها على العقل الإسلامى العربى والنفس الإسلامية العربية وهذه هى أخطر مراحل التغريب .

ذلك لأن أخطر سيطرة فكر على فكر هى نقله من دائرة فكره وأساليبه ومزاجه النفسى وترويضه على التحرك فى دائرة الفكر الوافد المسيطر .

ولذلك فإن أول خطوات التحرر من نفوذ التغريب والغزو الثقافى هو فرز المفاهيم الوافدة والكشف عنها وتنحيتها وتحرير الفكر الإسلامى منها وإعـادته الى التماس مفاهيمه الأصيلة للقيم بدلا من المفاهيـــم الداخلية .

ونحن إزاء ذلك كله لابد أن نواجه الحقائق الآتية:

أولا : أن كل ما كـتبه الغربيون من حملة عـلى الدين فإنما كان المقصود بها هو دين الغرب أسـاسا وأن نقل هذه القضية الى الفكر الإسلامى هو نوع من التمويه ، ذلك أن الفكر الإسلامى لم يعرف فى تاريخه كله أزمة خلاف بين الدين والعلم، أو صراع بين الأخلاق والمجتمع ، أما مفهوم الغرب فقـد كونتـه ظـروفه التاريخية من جهة ، وطبيعة فهمه للدين والحياة من جهـة أخـــرى ، بالإضـافة الى موروثاته الوثنيـــة اليونانية .

ومن أكبر الأخطاء : أن مشاكل الغرب وقضاياه التى مرت بظروف مختلفة نقلناها وكأنها حقـائق ، وأن نظرياته المطروحة للبحث وفروضه فى مجـــال النفس والأخلاق والتربية ، حاولنا أن نؤمن بها وكأنها علم مقرر أو أمور ثابتة .

ثانيا : أن أموراً كثيرة قد جرى طرحها وفهمها من خلال مقاييس الغرب ، وللغرب مقاييس فى مجـــال التاريخ واللغة والعقائد ولنا مقاييس مختلفة، ومفتاح مقاييسنا الأصيل هو : تكامل القيـــم ، وترابطهـا كوحدات منتمية الى أصل واحد .

ثالثا : أن من أبرز قواعد مقاييسنا أن الإنســـان يعيش فى دائرتين متصلتين :

دائرة مادية ، ودائرة معنوية ، وأنه جماع الروح والمادة والقلب والعقل ولذلك فقد جاءت رسالة الإسلام إنسانية ، وليست روحية صرفة أو مادية صرفة .

رابعـا : أن تاريخ أى أمة هو وحدة كاملة، متصلة الحلقات ، وكذلك يمثل تاريخ فكرها وحـــدة لهـا ذاتيتها وكليتها ومزاجها النفسى والاجتماعى .

خامسا : أن هناك محاولة دائمـة لترديد كلمـــة العقائد الموروثة فى باب الانتقاص أو التقليل من شأنها وهى كلمة يراد بها أساسا الغض من شأن الأديـان والقيم الإسلامية والمعروف أن العقائد الموروثة صنفان:

أصل وزائف ، وحى وميت ، وهى فى إطلاقها دون تحديد نوعها إنما تريد بالتمويه أن تخدع الناس عن غايتها .

أما فى الفكر الإسلامى فالعقائد الموروثة أصيلة لأنها مستمدة من القرآن ولا سبيل الى التخلص منها ، أما العقائد الزائفة فتلك هى التى حاربها الإسلام نفسه كالوثنية والأساطير وعبادة الفرد وعبادة البطولة وإنما تتغير القيم الصغرى المتصلة بالتقاليد

سادسا : والقيم ثابتة ومتغيرة .

وليست هناك قيم تخضع للتطور الدائم المطلق ، والقيم الأخلاقية ثابتة ثبوت الإنسان نفسه ، فى تركيبه وخلقه وهى لا تتغير بتغير المجتمعات أو الأزمان .

وإنما تتغير القيم الصغرى المتصلة بالتقاليد والعادات وغيرها .

سابعا : هناك تفرقة واضحة فى مفاهيم الفكر الإسلامى بين مقاييس العلوم ، ومقاييس الإنسانيات والنفوس .

مقاييس العلوم : مقاييس مادية ، وهى مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذى لا يتغير وهذه المقاييس لا تستطيع أن تخضع الإنسان ولا المجتمع ولا النفوس والأخلاق الى نتائجها .

ومن الحق أن يقال إن للعلوم المادية مقاييس وإن للإنسانيات مقاييس أخرى ، فإذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم فى مجال النفوس أخطأت وأفسدت ولم تصل الى غاية علمية حقيقية .

وبعد فنحن فى ضوء الإسلام ، وفى ضوء مقاييس الإسلام ، نستطيع أن نواجه هذه المجموعة من مشاكل الفكر على النحو الذى واجهنا به قضايا العصر [1] .

والله المستعان ...

● ● ●

---

(١) راجع كتابنا فى هذه السلسلة: قضايا العصر فى ضوء الإسلام.

- ١ -

قضيـــــة القيـــــم

ما هى القيم . هل هى ثابتة ام متغيرة ؟
ان القيم ، تتشابه فى مختلف الثقافات اسما ولكنها تختلف مضمونا . لـــكل قيمة مفهومها المختلف بين امة وامة وبين فكر وفكر، فما هو مفهوم الاسلام فى قضية الفــكر ، وما هـــو مفهومها المختلف عن الفكر الغربى ؟

قضيـــة القيـــم

انتقل مصطلح القيمة من مجال الاقتصاد الى مجال الاجتماع وارتبط منذ اليوم الأول باسم الخير والخير الأسمى، واعتبر الفلاسفة القيم فى صميمها إنسانية ، ومندمجة فى السلوك الإنسانى نفسه فهى ليست مجردة مستقلة فى ذاتها ولا منفصلة عن الإنسان نفسه، بحيث يتخذ من سلوك الفرد دليلا على القيمة التى يؤمن بها وقالوا: إن الإنسان حامل القيم وهى بخلاف الموجودات فإنها كونية مستقلة عن الإنسان بعيدة عنه .

والقيم روحية ومادية ، ونفسية واجتماعية ، وذاتية وموضوعية ، وتتمثل مفاهيم القيم فى مجموعتين :

قيم ثابتة ، وقيم متغيرة ، والقيم الثابتة لا تخضع للأزمان ولا للبيئات ولا تتغير بتغير الأماكن ولا العصور فهى قيم مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان مشكل من روح ومادة ومن جسم ونفس ، وهذه هى القيـم الكبرى المرتبطة بالمعتقدات والأديان والأخلاق ، والتى

تقوم على أساس إنسانى خالص ، قوامه الحب والإخاء والرحمة ، أما القيم الأخرى المتغيرة فإنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وتخضع لاختلاف الظروف الاجتماعية والبيئية .

* * *

وهذا المفهوم العلمى للقيم هو مفهوم الإسلام ، وقد أقر الإسلام القيم النفسية والاجتماعية والمادية جميعاً ، فى تكامل يستهدف تغطية حاجات الإنسان ويرتفع به عن المطامع والأهواء وكان الإسلام واضح التركيز على القيم البشرية انطلاقاً منه بالإنسان من أصدق منطلقاته وهى الفطرة ، فقد دعا الإسلام إلى الزواج والشراب والزينة والطعام والعمران وركز حول ذلك الجانب الاجتماعى قيماً ثابتة وجعل لها ضوابط أهمها التوسط وعدم الإسراف ، وأقر الإسلام كل مطالب النفس والجسم فى مختلف مجالات الحس والغرائز ، ولم يحرمها وإنما اختار لهما الطريق المشروع بالزواج ، وإباحتها فى حدود الاعتدال «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا (١)» «قل من حرم زينة الله التى

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١

أخرج لعباده والطيبات من الرزق (١) » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (٢) » .

وانما حرم الإسلام الزنا والربا والخمر والميسر والميتة ولحم الخنزير، وحرم القتل وانتهاك الأعراض، وذلك تكريما للنفس البشرية وارتفاعا بها عن الحيوانية ، وحماية لها من المهلكات ، وحياطة لهذا الكيان الإنساني (نفسا وجسما وروحا) من أن يدمره الإسراف فى الملذات أو الخروج عن الاعتدال .

* * *

وبذلك وضع الإسلام نظاما للقيم يختلف فى كثير من عناصره ومواده عن الأنظمة التى عرفتها حضارات الرومان والفرس والأديان السالفة ، وبذلك نحى النفس الإنسانية وحماها عن أخطار كثيرة .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢

(٢) سورة الروم : ٢١

أولا : حماها من أخطـار الزهادة واحتقار المـادة وقتل النفس وحرمانها من الملذات التى أباحهـا الله لهـا ٠

ثانيا : حماها من إسراف اللـــذات ، والشـهوات وتدمير الأجساد والمجتمعات نتيجة لضعف قدرة قادتها على حمايتها والدفاع عنها ٠

ثالثا : رفع النفس الإنسانية عن العبودية لغير الله، ونحاها عن أن تستعبدهـا الشهـوات واللـذات أو يستعبدها الحكام وأصحاب الرئاسات على النحو الذى عرفته المجتمعات اليونانية والرومانية والفارسيـــة القديمة التى كانت ترى كل ما سوى الأمراء عبيـــدا وخـدما وإقطاعا وملكا خاضعا للقتل والإذلال دونما رحمة ولا كرامة ٠

* * *

لقد جعل الإسلام أساس القيم : التوحيد والتقـوى والعدل والـكرامة الإنسانيـة والإيمان بالله ونـادى بالحرية والعلم والعمل ودعا الى السـلام والإخـــاء وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة (ووائم) بـين

القوى المادية والروحية ، وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط بعيدا عن الشهوات المدمرة والزهادة المدمرة ، بين الترف المفسد ، وبين الحرمان القاتل ، وازن الإسلام بين مطالب الروح ومطالب الجسم، ودعا الى التوسط والاعتدال . ومعنى هذا أن الإسلام لم يعتبر القيم المادية قيما مبغوضة أو محتقرة أو مرفوضة ولكنه جعلها على قدم المساواة مع القيم النفسية والروحية وجعل كمال الإنسان فى تكامل قيمه من حيث هو نفس وروح وجسد .

ولم يمنع الإسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئات والأزمنة دون المساس بالقيم العليا الثابتة، فقبل أن يكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدينة ، قبل أن يكون لمصر من الأمصار قيم تختلف عن قطر آخر ، هذا التفاوت والاختلاف فى القيم الصغرى جائز بل هو ضرورى فى تقدير الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى بشرط عدم الخروج عن القيم الكبرى التى أقرها الإسلام وتحركا فى دائرة التوحيد والتقوى والعمل والإيمان بالله .

* * *

ومن هنا اختلف الفكر الإسلامي مع الفكر الغربي فيما أطلق عليه نظرية (سلم القيم) أو ترتيب القيم، ومن شأن فكر كل أمة من الأمم أن يختار الأسلوب الذى يراه فى النظر الى القيم وإذا كان الفكر الغربى يرى أن للقيم قائمة وأن ترتيب هذه القيم صعوداً ونزولا تختلف باختلاف العصور والجماعات ، فإن الفكر الإسلامى لا يعترف بغير مفهومه فى تقسيم القيم الى : ثابتة ومتغيرة .

أما القيم الثابتة فهى ثابتة أبدا لأنها تتصل بالإسلام وليس الإسلام دينا وضعيا يتطور مع الزمن كما تتطور الأديان الوضعية والفلسفات ، وإنما هو دين سماوي يدعو الناس الي أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه وليلتقوا به ، ولما كان الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان ، فإن هذه القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان مستجيبة لحاجاته وحامية له .

ولا شك أن الدعوة الى تغيير قائمة القيم أو ما يسمى (سلم القيم) هى واحدة من الدعوات التى حملت لواءها الفلسفة المادية ومن ورائها دعاة تدمير القيم الإنسانية ، وإحلال مفهوم التطور المطلق والحرية

غير المحدودة من أجل تدمير القوى البشرية التى تستطيع أن تصمد فى وجهه محاولة السيطرة على العالم ، ومهما قال دعاة هذه النظرية من أن ظروف العيش أو تطور المجتمعات أو تغير الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية أو تحول الأمم من الزراعة الى الصناعة ومن شأنها أن تقيم أخلاقا جديدة ، فإن ذلك كله لا يستطيع أن ينفى أن الإنسان نفسه فى كل هذه المراحل المختلفة هو الإنسان بطبيعته وتكوينه وتركيبه النفسى والعقلى خاضع لقيم عليا ثابتة ، أما تطور المجتمعات والأمم والاقتصاد والاجتماع فإنه لا شك يحدث تغييراً مقررا ومعترفا به ، وهو ما يتصل بالقيم الصغرى أو القيم غير الثابتة ، تلك التى تتغير بالانتقال من المجتمعات الزراعية الى المجتمعات الصناعية .

وليس من شأن هذا التغير أن يحطم قيمة من القيم العليا ، كأن يسمح بإلغاء الزواج مثلا ، أو تحليل الربا ، أو إطلاق العلاقات الجنسية ، أو التملل من العبادات أو الخروج فى دائرة المعاملات عن الأصول الثابتة فى الاقتصاد أو التربية أو الشريعة أو النظم الاجتماعية .

إن الإسلام يفسح صدره للتغيير والتطور الذى يحدث باختلاف الأزمنة والبيئات ، وأن القيم التى قررها هى قيم متقبلة لكل تغير فى التفصيلات والفروع ، أما أن تكون الدعوة الى تغيير سلم القيم مدعاة الى تحطيم القيم الثابتة الأساسية فهذا ما لا يقره الإسلام ، ذلك أن الأمر ليس هو متابعة القيم للحضارة فى كل تطوراتها بل هو حماية الإنسان من أن تدمره الحضارة .

* * *

وأبرز ما يرتفع فى سلم القيم الثابتة فى الإسلام :

التوحيد والأخلاق والعدل والتقوى والإيمان بالله :

فلا يقر الإسلام دعوة ما تحاول أن تصدع هذه القيم، وإذا قيل إن للمجتمعات الصناعية أخلاقا غير المجتمعات الزراعية ، فإن ذلك لا يعنى بأى حال تقبل التحلل الأخلاقى ، أو إلغاء أنظمة المجتمع ، أو التربية أو إباحة الربا أو غيره ، وإنما يعنى أن تختلف أساليب العيش فى السكن وصناعة الطعام والمواصلات والرى

وإقامة الأفراح وتبادل المصالح ، ولكنها لا تقضى بحال على القيمة الأساسية المتصلة بالعبادات أو الأخلاق أو أنظمة المعاملات وقوانين الشريعة الإسلامية .

إن النظام الاجتماعى القائم على الأسرة هو نظام فطرى أساسى لا تستطيع نظرية (سلم القيم) أن تهدمه أو تحطمه ، مهما تحدث دعاة التغريب فى سخرية أو تشكيك عن عفة المرأة ، ذلك أن نظرية دوركايم القائمة على القول بأن الفطرة ليست فى الزواج ، هى نظرية زائفة ولا يقرها منصف واحد من علماء الاجتماع فى الشرق أو الغرب ، وإنما يعرف الناس أن دور كايم هو أداة من أدوات الصهيونية العالمية ، التى حملت لواء الدعوة الى تدمير النفس الإنسانية أخلاقياً ، والى تزييف التفسير الإنسانى للتاريخ ، والى مهاجمة الأنظمة الاجتماعية الثابتة ، كنظام الأسرة والدين ، ولقد أكد التاريخ البشرى فى مساره الطويل سلامة هذه القيم فى حياة الإنسان .

***

أما الذين يرون أن ما أصـاب العرب والمسلمين من شأنه أن يدعو الى إعادة النظر فى كثير من القيـــم ، فنحن معهم فى هذا ، ولكن بمفهوم آخـر ذلك هو أن المسلمين والعرب كانوا قد تخلوا عن القيم التى وسدها لهم الإسلام ، وأن هذا هو مصدر هزيمتهم ونكستهم، وأنهم لو عادوا الى سلم القيم الإسلامى وأقاموا صرح القيمة الثابتة على النحو الذى ارتضاه لهـم الإســلام لـكان ذلك مصدرا هاما فى القـدرة على مواجهــة خصومهم والانتصار عليهم ٠

إن أزمة القيم فى عالم المسلمين والعرب تدعونا الى التماس مفهومنا الأصيل والتخلى عن المفاهيم الزائفة الوافدة التى حاولت أن تكتسح مفهومنا وتسيطر على مجتمعاتنا وكياننا ، ويمكن القول على الإجمال بأن اتجاه الفكر الغربى الى تدمير القيم ، إنما جاء نتيجة للآثار التى أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفـة فى الزهادة والرهبنة والدعوة الى تحريم اللذات الحسية وقمع الغرائز والإشادة بالعزلة عن الحيـاة وتعذيب الأجساد ، فكان ما نرى من فلسفة تحتقر كل القيـــم الأخلاقية والدينية ، إنما هو : رد فعل الإسراف الذى فرضته القيم التى عرفها المجتمع الغربى ، ولم تـكن

فى الحقيقة مستمدة من الرسالات السماوية أو الكتب المنزلة ، ومن هنا كانت الحملة على هذه القيم وتحطيمها والانفتاح على الحرية المطلقة وتغليب اللذات والشهوات ، ولكن الإسلام الذى اعترف بالنوازع البشرية فى مختلف جوانب مطالب الجسد المادية وأباح للغرائز المختلفة حرية العمل فى حدود الضوابط التى أقامها والنظم التى وضعها حفاظا لها، فإنه غير مطالب باجترار مثل هذه المفاهيم أو الدعوات .

● ● ●

— ٢ —

قضيـــــة التطـــور

ما اظن ان كلمة من الـكلمات فى الفـكر الحديث شغلت الأذهان مثلما شغلته كلمـة « التطور » ، ان التطور ظاهرة طبيعية ولكن هل هو مطلق ام مقيـد ، وهل يرى الفـكر الاسلامى ان التطور قانون مستقل ام انـه مرتبط بقانون آخر هو الثبات .

قضيـــــة التطـــور

نشأت فكرة التطور فى مجال الفكر والثقافة نتيجة للخطوات التى اتخذها خلفاء (داروين) الذين نقلوا فكرة التطور من مجال الـدراسات البيولوجيـة الى مجال الدراسات الاجتماعية ، وقد جاءت قـوى ذات أهداف معينة فركزت على فكرة التطور ، وأعلتهـا إعـلاء خطـيرا دفعها الى مجال العقـائد الثابتة مـع إفرادها بالسلطان على كل القيم والمقدمات الأخلاقية والاجتماعية ، وكان ذلك جريا مع الاتجاه المـــادى الخالص الذى يحاول أن يتنكر لكل ما سوى الحس والمادة من قيم .

***

ومن الحق أن فكرة التطور ـ المادى والمعنوى لا يمكن أن تسير فى غـير نطاق واضح أو إطار محـدود أو فلك معلوم .

وأن هناك إستحالة علمية فى أن تجرى حركة التطور عشوائيا فى غير نظام أو قانون يحكمها .

ومن هنا يبدو الفرق بين رأى العلم وبين آراء الفلاسفة ، وينكشف الفارق بين الاتجاه العلمى وبين أهواء القوى التى تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى .

والمفهوم العلمى الصحيح هو : أن هناك عناصر ثابتة ، وعناصر يجرى عليها قانون التطور ، وأن تناسقاً يجرى بين عناصر الثبات وعناصر التطور .

وهذا المفهوم العلمى نفسه يطابق مفهوم الإسلام فى نظرة التطور والثبات ، فالفكر الإسلامى يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

* * *

ويستمد الفكر الإسلامى مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذى يحكم الموجودات جميعا . وعنده أن هناك عنصرين : أحدهما يمثل الثبات والاستقرار ، والآخر يمثل التحول والانتقال ، وأنه لا سبيل الى إلغاء أحدهما ، ولا سبيل الى القول بالتطور المطلق وإنكار عنصر الثبات ، ولابد من

الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما ، وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجــود والحياة أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل ولا أن يستعلى أحدهما ويسيطر ، فالثبات والاستقرار هو الجمود ، والتطور المستمر هو الفناء ، وهناك ترابط واضح بين الجمود والحركة ، وبين القديم والجديد ، وبــين الميت والحى .

فالحياة ناجمة من موت ، والجديد منبثق من قديم، والفكر بعلمه يتطور ولـكنه يظل ثابت الأصــول والمقومات ، والفكر الإسلامى ثابت الجوهر متغــير الصورة ، وفى الفقه يجرى التطور بالنسبة للأحـكام الفرعية دون الأصول ، وفى الشريعة أصول ثابتــة لا تخضع لقوانين التطور - كالربا والزنا والقتل والصلاة والزكاة والحج - فهذه من القوى الثابتة التى لا تتأثر بالتطور ، ولا يستطيع التطور مهما بلـغ من قــوة الحركة أن يقضى عليها أو يختصرها ، أو يحولها عن وجهها الصحيح ، وكذلك فى نظام الكون تجـد القوى الثابتة وتجد القوى التى تتحول وتتحرك ، والأصول الثابتة ليست خاضعة للتطور .

هذا هو مفهوم الإسلام ، وهو مطابق للمفهوم العلمى تماما ، ولكل مفاهيم العقل والمنطق ، أما المفهوم المطروح فى أسواق الفكر الغربى ، والذى وصل صداه الى الفكر العربى الإسلامى ، فهو مفهوم فلسفى خطير لم يقم على أساس علمى ، وإن أخذ منطقه من نظرية دارون فى التطور البيولوجى ، وعمد الى نقله الى ميدان الاجتماع والفكر .

***

ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة، هى واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية ، التى تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشرى كله ، وتفرغه من مفاهيم الإيمان والأديان والرسالات السماوية ، وتدفع به بعيدا الى نهاية خطيرة يجدها واضحة وضوحاً لا مرية فيه لكل من راجع بروتوكولات صهيون أو نصوص التلمود ، أو اتصل بالمحاولات التى جرت منذ عصر التنوير فى سبيل إخراج الفكر الغربى المسيحى الأصل من كل القيم ، ودفعه الى مجال المادية المغرقة .

ونتشكل هذه المحاولة : فلسفة واضحة متكاملة تهدف الى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله ودفع الإنسانية كلها الى الدمار ، بتحطيم قيمها ومعنوياتها وتفريغها من كل القوى التى تحملها على التماسك فى وجه الغاية الصهيونية البعيدة المدى وهى السيطرة على العالم .

ولقد كانت نظرية التطور هى المنطلق الخطير للقول بأن كل شىء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله ، وأنه يبدأ فى أول الأمر ضعيفاً ، ثم ينمو ، ثم جرت محاولة تطبيق ذلك على الأديان والأخلاق ، ومنهـا انطلقت النظرية التى تقول : بأن الأخلاق تتطور مع العصور ، وأن الأديان تتطور مع البيئات . والقول بهذا مخالف للحقائق العلمية الصحيحة ، ومعارض لنواميس الكون والحياة .

لقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو ، خروجا به من المجال العلمى الصارم الى المجـــال الفلسفى الذى لا يخضع لأى سند علمى أو عقلى ، ومن مـذهب التطـور انطلقت كل المـذاهب والدعـوات والفلسفات المادية ، فقد اعتبره المتشبثون به قاعـدة

لعلوم جديدة هى : مقارنة الأديان وتفسير التـاريخ والنفس والأخلاق والقوميات والاقتصاد والاجتماع ٠

ومن هذا أخذت هذه العلوم تخضع للمناهج التى تخضع لها العلوم المادية ، بينما يتناقض هـذا مـع أبسط قواعد المنطق والعقل ٠

ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيـلا الى نـزع القداسة عن الأديان والقوانين والقيـم والأخـلاق والسخرية منها والدعوة الى التحلل والإباحية وإنكار مقومات المجتمعات والعقائد على النحو الذى كشفت عنه نظريات « فرويد » و « دور كايم » وغيرها ٠

ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق ، فى المحيـط الاجتماعى والفكرى هجوما علميا ، ودحضت بمنطق عقلى واضح ، ولكن أصوات دعاتهـا المسرفـين فى استغلالها ظلت أعلى الأصوات ، لأنها لم تكن أصواتاً طبيعية ، وإنما هى أصوات تدفعها قوى بالغة القدرة فى مجال النشر والإعلان ٠

ومن أبرز من دحضوا أخطاء نظرية التطور المطلق: « الدكتور كريس موريسون » الذى أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح :

« إن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذى يتغير هو الصورة فقط » •

ومضى يضرب الأمثلة فى المجالات المختلفة :

ـ إن نزعة الطعام لم تتطور وانما الذى تغير هو صورة الطعام •

ـ إن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور وانما الذى تغير هو صور البيوت •

ـ إن نزعة اللباس وستر العورة لم تتطور وانما الذى تطور هو صورة اللباس •

ـ إن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية لم تتغير وانما الذى تغير هو صورة القتال •

وقال إن التطور انما هو فى الصور والهيئات لا فى الحقائق ، لأن الحقائق ثابتة لا تتغير وأن القول بأن « لا شىء ثابت على الإطلاق » نظرية زائفة كما هاجم الكثيرون تطبيق فكرة التطور على الإنسان والقيم •

والمعروف أن الدعوة الى التطور المطلق قد حمل الدعوة إليها رجال موصومون ، لهم صلة التبعية

بالمحافل الماسونية ، وبذلك فهى من نتاج فكرة السيطرة على العالم وتدميره التى كشفت عنها بروتوكولات حكماء صهيون .

واذا راجعنا البروتوكول الثانى فإنه يستطيع أن يلقى الأضواء على هذه الاتجاهات ، يقول : (لاحظوا أن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل وأن الأثر (غير الأخلاقى) لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحا لنا على التأكيد) .

* * *

ولقد جرى كثير من الكتاب وراء بريق نظرية التطور وربما بحسن نية دون أن تتبين لهم أبعاد الخطر من القول بالتطور على إطلاقه ، بعيدا عن مفهوم الإسلام الجامع دائما بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمى صحيح .

ذلك أنه من السذاجة النظر الى التطور بعيدا عن القيم الثابتة ، وبمعزل عن الأصول الأساسية لفكرنا

ومقدراتنا ، والدعوة المسمومة الى التطور إنما تحاول أن تقضى على التراث والقديم ومنها العقائد والأديان والأخلاق ٠

فالجديد لا يمكن أن يقوم إلا على القديم ، والحاضر ثمرة الماضى والحى يخرج من الميت ٠

وغاية ما ندعو اليه هو أن لا نقف عند الماضى أو القديم أو الميت وقفة الجمود ٠

وفى ضوء هذه النظرية لا يمكن القول بتطوير اللغة وتطوير الأذواق ، وهو يعنى تطوير الوسائل والأساليب ، والأطر ، مع الاحتفاظ بجوهر القيم ٠

* * *

وقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير ، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له ٠

فالتطور يشمل أى تغير يحدث فى أوضاع الجماعة ، سواء فى اتجاه تقدمى تصاعدى أو فى اتجاه عكسى

تنازلى ، ثم هو فوق ذلك ينبنى على أن دوافع هـذا التغيير وعوامله إنما يـكون منشؤها ذات الشىء ، ومردها الى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطـوير فهو عـلى عكس ذلك ، يختص أولا بالتغيير التصاعدى الذى يهدف دائما الى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجية عن طبيعته، والقوة الخارجية هى : القيـادات الإصلاحية والدعوات التقدمية (١) .

وهذا يعنى المواءمة بين أصول الفكر الإسلامى بما يقوم عليه من تشريعات وقيم ، وبين ما يتجـــدد فى المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الضرورى فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن هنا أمكن القول بأن التطور لا يمكن أن يـكون قانونا تقدميا ، أى أن كل طور أفضل من الطور الذى سبقه .

* * *

(١) راجع بحث الدكتور محمد بيصار فى كتابه العقائد والأخلاق.

ومن ناحية أخرى فقد واجه الفكر الإسلامى الأخطاء التى انطوت عليها نظرية التطور ، التى ارتبطت أساساً بالمفهوم المادى الذى استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون ، والذى قام على أساس إنكار وجود الخالق والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية ، والفكر الإسلامى يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث فى الآخرة ، مع الإيمان الكامل بالغيب .

وقد واجهت النظرية من الباحثين المنصفين معارضة فى أغلب جوانبها فقال (كرلس مورلسون) إن نظرية « أن الإنسان أصله قرد » قد كذبها العلم الحديث لما بين النوعين من بعد شاسع ففى الإنسان خواص لا توجد فى القرد منها قدرته على التفكير ، ووجود الوحدات الجماعية من القبيلة ، والأمة ، والحزب ، والدين ، ومنها خواص بيولوجية .

وأنكر (الدكتور والاس) أن يكون الإنسان قد تم على طريقة التطور والارتقاء حيث قال : إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأسا ، وقال (فرجو) إنه تبيين لنا من الوقائع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيدا فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره

وقال (أجاسيز) ان النشوء لا يتم إلا وفقا لخطة إلهية حكيمة ، وأن الاصطفاء الطبيعى اذا ما حل محل الخلق الإلهى فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء .

وأن التفسير الحرفى لنظرية دارون يفسح المجال لتأليه سوبر مان نيتشه ، وتمجيد القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس .

« ان الفكرة التى يعتنقها الدارونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضا اعتباطيا يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة » وأكد الباحثون أن دارون لم يورد ضمن نظريته أن الإنسان يرجع فى أصله الى القرد ، وأن الذين زعموا هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب دارون لشهرته العلمية ونفى هكسلى تلميذ دارون : أن الإنسان قد انحدر من القرود ، وأن الإجماع بين العلماء - لا الفلاسفة - على أن الحياة لم تحدث مصادفة ، وأنها حدثت بقدرة الله وارادته .

وهكذا ينكشف هدف تزييف النظرية وسوقها الى الغاية التى يريدها الماديون وعلى رأسهم (لامارك)

وهيكل الذى دعا الى تأليه الطبيعة ومن ثم انتقلت الى مجال الاجتماع والفكر على أيدى هربرت ، الذى حاول تطبيق نظرية التطور على العالم كله، وتحويلها من النظرية الإحيائية الى نظرية اجتماعية •

ثم جاء الدكتور شيلى شميل فى مصر فحمل لواء هذه الدعوة وترجم كتاب (بختر) الذى يعد من غلاة الماديين ، وحاول أن يطبق نظرية التطور فى مجال الفكر والاجتماع ، وقد عارضه علماء الدراسات الطبيعية أنفسهم من أمثال يعقوب صروف وغيره ولم يكن شيلى شميل متخصصا أصلا فى هذه الدراسات بل كان طبيباً •

وقد راجت هذه النظرية فترة وان وجدت المعارضة والنبذ منذ اليوم الأول من العلماء المتخصصين أنفسهم ، ثم لم تلبث أن سقطت ورفضها الفكر الإسلامى ، وعجز دعاة المادية عن أن يجدوا لهم دليلا علميا يؤكدون به موقفهم •

* * *

ولقد أكد الفكر الإسلامى أن التطور الذى التمسته المذاهب الفلسفية المادية بمعنى إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذى يصل الى الإلحاد والإباحية ليس من مفهوم الإسلام ولا هو متقبل من الفكر الإسلامى ، وأن هذا النحو من الفهم إنما قام فى الغرب سبنسر فى ظروف محلية خاصة وليس له قيمة حقيقية فى مجال القيم الإنسانية .

ولقد دارت مناقشات متعددة حول التطور والثبات ، بافتراض أن هناك تناقض حتمى بينهما، والواقع أن الثبات يبدو نظريا نقيض التطور والحركة ، ولكنا اذا أنعمنا النظر من الناحية العقلية والعلمية وجدنا أن للتطور والحركة ضوابط ، هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة باعتبار المقومات والدوافع الأساسية للحركة والتطور، فالقطار والسيارة والطائرة والصاروخ كلها أجسام متحركة ، ولكنها فى نفس الوقت محكمة الصنع بضوابط ثابتة تنتظم حركتها وتيسر اندفاعها باستمرار ، ولولا هذه الضوابط الثابتة لكانت الحركة عشوائية أقرب الى الفوضى ، ولما تولدت الحركة قط .

فالقطار يخرج عن مساره اذا أهمـــلت صــيانته واختلطت ضوابطه وفقـد احـكام صنعه ، والصاروخ ينفجر فى قاعدته اذا اختلت هذه الضوابط .

كذلك المجتمع الإنسانى ، فهو مجتمع دائب الحركة والتطور ولكن هناك ضوابـط أساسية ثابتة تنظـــم حركته وتحكم اتجاهه ، ومن هنا يتقـرر أن التطور ليس قانونا أخلاقيا وليس كل طور أفضل من الطـور الذى سبقه بل التطـور قانـون اجتماعى واقعى ولا يقتضى مطلقا تفضيل الطور الأخـير عـلى الأطـوار السابقة ، وأن الفكر الإسلامى ثابت الجوهـر متطور الصور ، وقـد أعطى الإسلام مبـادىء ثابتـة وترك للنـاس القـدرة على التحرك من خـلال الفــروع والتفاصيل ، وأقام قيما أساسية لا سبيل الى تطورها أو الخروج عنها وهى أشبه بالعمد فى البناء .

●●●

- ٣ -

قضـــــية الحـــــرية

« الحرية » مصطلح حديث ، ولـــكن هل هو من الـــكلمات التى يتشـــابه مفهومهـــا وتفسيرها بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى.

ما هو مفهوم الاسلام للحرية ، وهل يقـــر الاسلام اطلاق الحرية أم يضع لها الضوابط.

وما هو مفهـــوم الحـــرية فى بروتوكولات صهيـــون ؟

قضـــــية الحــــرية

من المصطلحات التى استطارت فى العصر الحديث كلمة « الحرية » وهى كلمة عذبة محببة الى النفوس، ترجع جذورها البعيـــدة الى الأديان والرســالات السماوية فى إطارها الصحيح القائم على الجمـع بين الحرية والمسئولية ، وقد أولى العرب والمسلمون هذه الكلمة فى العصر الحديث اهتماما كبيرا فى مواجهـــة حركتهم نحو مقاومة الاستعمار والنفـــوذ الأجـنبى والاحتلال الذى كان يسيطر على أراضيهم ومقدراتهم، وأصبحت هذه الـكلمة مرادفة للوطنية ، وشعــــارا للمقاومة ، وسلاحا فى وجه الغاصب والظــالم ، وفى وجه الاحتلال والاستبداد ، وفى وجه كل طغيـــان ، وكانت الثورات المختلفة التى قامت تتخذ من «الحرية» علما لها وشعارا .

* * *

غير أن كلمة الحرية لم تلبث أن بدت على أقــلام

بعض الكتاب، ومن خلال بعض النظريات والفلسفات والدعوات الأجنبية وهى تحمل صورة أخرى تختلف اختلافا واضحا عن هذا المفهوم ، بل وتتعارض معـه أحيانا ، وذلك حين ارتفعت الأصوات بالدعـوة الى الحرية المطلقة فى مجال الاجتماع والفكر والسلوك • وصاحبها القول برفع القيد عن كل إنسان ليمارس ما يشاء من شئون ، دون تقدير واضـح للمسئولية أو التبعية أو حدود ما يملك الآخرون ، واتسع نطاق هذه الدعوة الضارة المستحدثة الى القول بحرية التربيـة وحرية العلاقات بين الجنسين ، وحرية الفنان والكاتب ودخل زيف كثير على هذه العبارة ذات التاريخ المجيد فى مقاومة الظلم والاستعمار والاستبداد •

وجرى كثير من الكتاب والمثقفـين وراء البريق ، وخدعتهم الكلمات التى تهز الحس ، وتحرك الغرائز وتدعو الى الانطلاق من كل قيد ، دون أن يقدر هؤلاء جميعا مدى الأخطار التى تتعرض لها الأمم والشعوب، ومدى الآثار والنتـائج التى تترتب على الدعـوة الضـارة •

ولا شك أن من وراء هذا الانحراف فى فهم الحرية، وهذه الدعوة الى إطلاقها الاندفاع بها لتدمير قيـم

النفس والأخلاق ، ولا شك أن من وراء ذلك خلفية خطيرة ، وهدف مسبق ومحاولة مسمومة تستهدف قوى الأمم وشبابها ومقدراتها . وحين نرجع الى بروتوكولات حكماء صهيون نجد إشارة واضحة الى سلاح « الحرية » و « التحررية » فى تحقيق الغاية الخطيرة التى تستهدفها الصهيونية العالمية .

* * *

يقول البروتوكول الأول : (كنا نحن أول من نادى فى جماهير الشعب بكلمات «الحرية والعدالة والمساواة» وهى كلمات لم تزل تردد الى اليوم ، ويرددها من هم بالببغاوات أشبه ، ينقضون على طعم الشرك من كل جو وسماء ، فأفسدوا على العالم رفاهيته ، كما أفسدوا على الفرد حريته الحقيقية ، وكانت من قبل فى حرز من عبث العلماء) .

ويقول (وفى جميع جنبات الدنيا كان من شأن كلمات « حرية ـ عدالة ـ مساواة » ، أن اجتذبت الى صفوفنا على يد دعاتنا وعملائنا المسخرين ، من لا يحصيهم عد ، من الذين رفعوا رايتنا بالهتاف وكانت

هذه الكلمات هى السوس الذى ينخر فى رفاهية الأميين (أى غير اليهود) ويقتلع الأمن والراحة من ربوعهم ويذهب بالهدوء ويسلبهم روح التضامن) .

وقد أعطت النظريات الفلسفية التى صاغها الدائرون فى تلك الصهيونية للتحررية معنى يتسق مع الدعوات التى حمل لواءها فرويد ، وسارتر ، وغيرهما وهى (انسلاخ الفرد من كل ما تواضع عليه المجتمع من آداب وقوانين فى رغباته وشهواته [1]) .

ويمكن رد كلمة « الحرية » فى تطورها الفلسفى الغربى الى الثورة الفرنسية ، التى قادها رجال المحافل الماسونية من أجل تحطيم القيود التى كانت تفرضها المجتمعات الأوربية على اليهود من حيث التعامل والإقامة والعبادات وغيرها .

* * *

ثم كانت هذه الكلمة من بعد ذلك منطلقا لمذهب سياسى واقتصادى اتسمت به الرأسمالية الغربية هو

---

(١) راجع محمد خليفة التونسى : بروتوكولات حكماء صهيون .

مذهب اللبيرالية ، أو الحربيين كما كان يطلق عليهم ناقلوا هذا المذهب الى الفكر الإسلامى العربى ، ويقوم هذا المذهب على ما تقوم عليه الأنظمة الديمقراطية الغربية : ويؤمن اللبيراليون بالفردية، فالفرد هو العنصر الأساسى فى الاقتصاد ، ويدعون الى توافر أقصى حد للحرية الفردية .

وقد جاءت دعوة ماركس ، ونظريات الاجتماعيين من بعد كرد فعل للنظرية الفردية ، فأعلوا من شأن الجماعة والمجتمع ، وقد حاول الاحتلال أن ينقل الى العالم الإسلامى هذه الأنظمة اللبيرالية الغربية ، فأخفقت كثيراً فى معظم البلاد التى طبقت فيها ، وظهر الخلاف الواضح بين مفاهيم الإسلام السياسية وبين مفاهيم اللبيرالية الغربية التى فرضها النفوذ الأجنبى باسم الاحتلال .

وكان من الطبيعى أن تفشل هذه الأنظمة ، لأنها لا تمثل المزاج النفسى والاجتماعى للمسلمين والعرب، ولا تنبع من قيمهم وعقائدهم وذاتيتهم .

وكذلك جرت الدعوة الى الحرية فى الفن والأدب، وارتفعت أصوات بالدعوة الى حرية الفكر ، وصدرت

فى الثلاثينات مجلة تحت اسم العصور كانت تكتب على غلافها هذه العبارة :

(حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما فى رفض أى رأى من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، اطمأنت اليه نفسك ، وسكن اليه عقلك ، إذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه) .

وكانت هذه دعوة الى دحض الأديان والعقائد والقيم ، وهى تبدو فى موعدها وأهدافها وأسلوبها جارية مع النصوص التى نقلناها من بروتوكولات صهيون ، فقد اتخذت الصهيونية الدعوة الى الحرية سلاحاً لها لتدمير كل العقائد والقيم التى جاءت بها الأديان السماوية وتحت اسم (التقاليد والأساطير الموروثة) .

وما تزال هذه العبارات تجرى الى اليوم على أقلام دعاة التغريب منذ أن رددها داعية المادية والإلحاد : الدكتور شبلى شمبل قبل أكثر من تسعين عاما ، وحمل لواءها الكثيرون تحت أسماء مختلفة منها : الدعوة الى التسامح ، والدعوة الى حرية الفكر ،

والدعوة الى التقدم ، وكانت كل العبارات المسوقة من (رجعية وتأخر وجمود وتعصب) ، إنما تعنى كلمة (الدين) دون أن تستطيع التصريح بها ٠

* * *

وكان الهدف الأساسى هو خلق « ثقافة عربية » تقوم على أساس الفكر الغربى منعزلة عن الفكر الإسلامى وقيم القرآن والإسلام والشريعة الإسلامية ، وذلك كمقدمة للانصهار فى الفكر الغربى ، وفقدان الذاتية والشخصية الإسلامية العربية ٠

ونحن حين نرجع الى مفهوم « الحرية » فى الإسلام نجد وضوحا وتكاملا وسماحة لا تصل اليها مفاهيم الفلسفات التى تصدت للحرية منذ جون ستوارت ميل، الى سارتر ٠ فالحرية فى الإسلام هى : التحرر من قيود الوثنية ، واستعباد الإنسان للإنسان ، وهى ضد عبودية « الأوثان » ، وضد الرق ، وضد العبودية لأى كائن كان ، وهى حرية الفرد وحرية الجماعة ٠

وهى حرية الكلمة وحرية الضمير تجمعها آية واحدة

من القرآن : « لا إكراه فى الدين (١) » ، فهى حـــرية الاعتقاد والقـول والتفكير .

وكما دعا الإسلام الى (تحرير الفـكر) دعـا الى تحرير الجسم ، فالإسلام هو أول صيحة لمحاربة الرق وحصره فى أضيق نطـاق كمقدمة لتصفيته ، والحرية السياسية واحدة من حريات الإســلام وتقــوم على الشورى ، غير أن الإسلام يعطى للحرية ضوابطهـــا وتحفظاتها التى تضمن حرية الغير ، فالإســلام حين يقرر إطلاق الحريات للأفراد فإنه من ناحية أخــرى يشترط ألا يكون فى ذلك طغيان على حريات الآخرين أو إضرار بمصالح الجماعة .

* * *

وحرية العقيدة حيث لا إكراه فى الدين إنما تعنى كفالة الإسلام لحرية عقائد أهــل الـكتاب ، ويدعو الإسلام الى الحرية من كل القيود ، قيــود العبودية الفكرية والجسدية ، كما يدعو الى حرية الإنسان من

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦

قيد الجهل والخرافة ، ويدعو الى حرية المرأة فى التعليم ومفهوم الإسلام فى هذا أوسع أفقا ، وأبعد مدى من مفاهيم الحرية لدى فلاسفة الاجتماعيين والليبراليين على السواء ٠

ويصل الإسلام الى الغاية فى تقرير الحرية حين لا يبقى الإنسان عبدا لشهواته وأهوائه ، أو عبدا لغير الله ، فلا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق ، ويأنف أن يكون عبدا لإنسان مثله ، فلا يقبل الذل لمن هو مثله ، ويأنف من الإحساس بأن الرجل أقل من سواه٠ فلا فرق بين الكبير والصغير ،والغنى والفقير ، والأبيض والأسود إلا بالتقوى والعمل ٠

وقد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام فى حرية الفكر، وكيف أطلق العقل الإنسانى من قيوده، ودفعه الى الخروج من آثار الوثنية : يقول : « بارتلمى سانهلير » :

« إن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً جدا ، فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة،

ثم إنه بتحريمه الصـــور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم لأن يرجع الى نفســه ، وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه » .

وأشار جوستاف لوبون فى مقارنة بين الإسلام وبــين غيره فقال :

« إن الإسلام هو الذى عــلم الإنســانيــة كيف تتفق حرية الفــكر مع استقامة الدين ، وقــد كان يظن أنهما لا يجتمعان » .

بل كانت حرية الفكر فى الإسلام واضحة وضوحــا لا حد له فى كل الأعمال التى تتناول الأديان الأخرى، وكان مبدأ « الإنصاف » واضحا فى هذا المجال .

وقد أشــار (هاملتــــون) الى ذلك عنــد تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال :

العرب هم أول من ألفوا فى الملل والنحـل لأنهـم كانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم إنهم

اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانـات توحيـدية ويحظى ابن حزم بالنصيب الأوفر .

« وقد كتب أبو الريحان البيرونى فى أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان اذا كتب عن نحلة يوهمك أنه هو أحـد أبناء تلك النحلة ، لتلطفه فى وصف شعائرها .

وكان كتاب العـرب يذكـرون جميع المخالفين بكل حرمة ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وطبقات الحكماء لابن القفطى ، وطبقـات الأدباء ليـاقوت ، والوافى بالوفيات للصـفدى ، وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى أمثلة لهذا التسامح ، فقد ترجم المؤلفون للنصـارى واليهود والسامريـين والمجـوس كأنهم أبناء ملة واحدة .

ننقل هذا عن مستشرق لنقارن به ما يقـوله عـالم غربى آخر يصف موقف قومه من الأمم الأخرى ، ذلك هو جوستاف لوبون الذى يقول :

« إن حرية الفكر فى الغـرب تختفى لـدى الأوربى عندما يمتد فكره الى بحث فـكر العـالم الإسلامى ،

فالمفهوم الصليبى العميق الأثر فى النفس الأوربية يحول دون حرية الرأى اذا كان موضوع البحث هو الإسلام » .

● ● ●

وقد تأكدت هذه النزعة على أسنة أقلام كثير من الباحثين الذين ردوها الى طابع الاستعلاء الغربى الذى لا يعترف بالإنصاف أو الفضل لغير ذوى الأجناس البيضاء ، وهى نزعة قديمة عرفتها روما حين قال حكيمها (روما سادة وما حولها عبيد) .

ولقد أفسح الإسلام فى تاريخه الطويل للملل والنحل باب السجال والجدل والمناقشة ، وسمح بعض الخلفاء بذلك فى مجالسهم ، ولم تكن دعوتهم الى حقهم الا عن طريق البرهان والإقناع ، مع السماحة للمخالف بينما لم تحتمل أوربا مثل هذا السجال ، فكانت من آثاره معارك عنيفة مثل معركة سانت بارتلمى وغيرها .

وقد كان مفهوم حرية الفكر فى الإسلام واضحا صريحا : لم يقبل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر

على أساس التحرر من الأخلاق أو التحرر من القيم ، أو اتهام الموروثات بالزيف ولكن دعا الى البرهان والعقل ، فحرر الإنسان أولا من رق التقليد الأعمى ، ورباه على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، ودعا الى التخلص من عبادة الأهواء وطالبه بالدليل ، ونعى عليه الجهل والظلم والمتابعة بغير اقناع ، فهى حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل ، وتقوم على قواعد النظر والاستدلال بعيدا عن الأهواء والأوهام .

وهى تختلف اختلافا واضحا عما دعا اليه الماديون والغربيون الذين يدعون الناس اليوم الى التحرر من الأساطير الموروثة وهم يعنون بها الإسلام ، والا فأين هذه الأساطير الموروثة اليوم ؟ وقد فصل الإسلام بينها وبيننا بأربعة عشر قرنا حين جاء القرآن بالحجة الواضحة وزيف كل دعوى الوثنية والمادية والإباحية مما كان قبله .

● ● ●

وفى هذا المجال نذكر تلك الشبهات المسمومة التى حاول خصوم الإسلام طرحها حين قالوا بأن دماء

سفكت واضطهادا وقع لبعض أعلام الفكر فى الإسلام من أجل فكرهم ، والحق أن الإسلام لم يضطهد مفكرا لفكره ، وانما جاء القصاص حين وصل الأمر الى حدود التآمر والاتصال بخصوم الدولة الإسلامية ، وان كثيرا ممن وصفوا بأنهم قتلوا ، عاشوا أحرارا لم تمسهم يد على الرغم مما كانوا يصدرون عنه من هرطقة وضلال، حتى ثبت عليهم بالدليل مراسلتهم لـدولة أجنبيـة، واتصالهم بالقرامطة والحشاشين أو غيرهم .

ولقد قال أبو العـلاء المعرى وابن الراوندى وأبو بكر الرازى وغيرهم ما لم يقل مثله فولتير وروسو ، دون أن يصيبهم أذى ، ولم يرد فى التاريخ الإسلامى من علماء حرقوا من أجل معتقداتهم كما فعلت أوربا فى ديوان التفتيش .

●●●

قضـــية العقـــل

لا مشاحة ان « العقل » مصطلح معـــترف به فى كل فكر وفلسفة ، ولـــكن هناك فوارق عملية بين مفهومه فى الفكر الاسلامى وبين مفهومه فى كل فكر وفلسفة . ما هو مفهـــوم نظرية المعرفة الاسلامية ذات الجناحـــين : القائمة على العقل والوجدان وما وجه الخلاف بينها وبين نظرية الشرق القائمة على المادية والمحسوس وحده ؟ .

قضـــية العقـــل

من أهم القضايا التى تثار فى مجال الفكر الحديث (قضية العقل) ولقد كانت الدعوة الى تحكيم العقل وإعلاء العقل من الدعوات التى غذاها الفكـر الغربى الحديث ، وهو اتجاه علمى صحيح ، إذا جرى وفـق منهج المعرفة الإنسانية الجامع بين العقل والقلب ٠

ولقد قدم الإسلام للإنسانية هذا المنهج الجامع الشامل ليحقق به أصول المعرفة الحقة ، بعيدة عن قصـــور المناهج العقلية الخالصة ، أو المناهج التى تعتمد على الوجدان والقلب ٠

فقد تنازعت الفكر البشرى دعوتان : إحداهما تقول بالعقل وحده ، والأخرى تقول بالوجدان ، ثم جـاء الإسلام ليقرر بأن منهج الفكر والمعرفة الصحيح الكامل هو المنهج الجامع للعقل والقلب معا ٠

وقد اعتمد منهج العقل على العلم وعلى المحسوس

وعلى الماديات وعلى كل ما يدخل فى بوتقة المعامل، وأغضى إغضاء تاما عن عالم الغيب (الميتا فيزيقيا) وأنكـره إنـكارا كاملا ، وبذلك تجاهل فى الحقيقـة جانبا كبيرا من المعرفة لا سبيل الى فهم الحياة فهما صحيحا دون الاعتراف به .

وجـاء الوجدانيون بعض دعاة الصوفية والإلهـام والاستشراق وغيرهم فقرروا أنه لا سبيل الى فهـم الحياة والوجود إلا عن طريق القلب وحده وأنـكروا مكانة العقل .

وظهرت مذاهب فلسفية تؤيد هذا الاتجاه، ومذاهب أخرى تؤيد ذلك الاتجاه ، وعند النظرة الصحيحـة نجد أن كلا من النظرتين عاجزة عن بلوغ أصول المعرفة الحقـة .

* * *

ولقد جرى الفكر الإسلامى طورا مع هـذا الاتجاه، ومرة مع الاتجاه الآخر ، وفى كلا الأمرين كان مجانبا لمنهجه الأصيل ، ومفهومه الكامل ، ذلك أن أبرز مـا يتمثل به الفكر الإسلامى هو كمال النظرة وشمولهـا وجماعها .

والعقل أداة من أدوات المعرفة لها مجالها وميدانها وطريقها الذى استطاعت أن تنطلق فيه ، وفى حدود هذه المقدرة استطاع أن يقدم الكثير ، غير أن هناك ميادين عجز عن اقتحامها ، ومناطق لا تؤهله قدراته على اختراقها وقضايا لا يستطيع الحكم فيها .

هذا الجانب هو عالم الغيب الذى صوره الحق تبارك وتعالى فى القرآن وأمدنا بحقيقته عن طريق الوحى ، وأمرنا أن نؤمن به ، فالعقل يقبله ولكنه لا يستطيع وحده أن يصل الى الحكم فيه لأن أداته ليست مؤهلة لهذا الغرض ، فالعقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء فى جميع المعضلات .

والعقل فى حقيقته نور فى القلب ومهمته أن يعرف الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والحسن من القبيح ، فى ضوء الوحى ، وليس خارجه ، ومن هنا كان خطر الدعوة المثارة الى تمجيد العقل ، وتأليه العقل ، وإعلاء العقل واعتباره سبيلا وحيدا فى البحث أو الحكم على الأشياء ، وهو من الدعاوى التى يحمل لواءها دعاة المادية ويهدفون بها الى هدم عالم كامل هو عالم الميتافيزيقا .

أما فى الإسلام فإن هناك ترابطا بين العقل والوحى أو العقل والقلب ، والعقل وحده لم يستطع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه الى معرفة كل الحقيقة وأدى الى انحرافهم ، وكذلك أخطأ الذين نحوا العقل والتمسوا المعرفة الباطنة عن طريق المذاهب الإشراقية أو غيرها .

* * *

ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة جامعة بين العقل والقلب ، جامعة بين عالمى الغيب والشهادة .

ولا شك أن العقل له مجاله فى ميدان العلوم والتجريب وآفاق الكيمياء والتكنولوجيا وغيرها ، وقد كان له دوره الضخم الذى استطاع به المسلمون بناء المنهج العلمى التجريبى حين تخطوا المرحلة النظرية التى وقفت عنها دراسات الفلاسفة قبل الإسلام .

وقد كانت نظرية المعرفة الإسلامية الجامعة بين العقل والقلب مصدر النصر الذى حققه المسلمون حين

وصلوا الى قاعدة لم يسبقهم اليها سابق وهى قاعدة (جرب واحكم) فى مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء .

ومن هنا سار العقل والقلب فى الفكر الإسلامى فى إطار واحد ، دون أن يقع بينهم ذلك الصدام الذى عرفه الفكر الغربى ودون أن تتمزق الجبهة الواحدة الى جبهتين ، على النحو الذى نراه فى التفرقة الغربية بين العلم والدين .

ولقد أكد العلماء المسلمون القاعدة التى وضعها النبى حين قال « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه (١) » .

فكان ذلك دعوة الى التمحيص والإقناع ، وهى التى أوصلت المسلمين الى إجراء التجربة .

وقد أقام المسلمون تجاريهم العقلية والعلمية تحت راية الوحى وفى ظلال مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب والروح والمادة .

---

(١) هذا الحديث مما جاء فى الأثر عن رسول الله صلى عليه وسلم .

ومن هنا كان منطق المسلمين فى الترابط بين العلم والدين واضحا ، فالأصل فى العلم : العقل ورائده التجربة الحسية ، ومن ثم فالعلم يمتد فى مجال واسع ، ويحقق فيه انتصارات ضخمة ، ولكنه يقصر عن إدراك سائر حقائق الكون وخاصة عالم الغيب ، والعلم فى مفهوم الإسلام يأمر أهله أن لا يعادوا ما يجهلون من الحقائق ، وأنهم فى جانب الغيب لهم منهجهم فى الإيمان به عن طريق القلب المصدق فى الوحى، والعقل شاهد ومقرر .

* * *

والإسلام صديق العلم بما تضمنه القرآن من نصوص تحض على طلب العلم والتمرس به ، وليس للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شىء ليس من مفهوم بحثه ، ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية الحسية ، وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهى البحث والاستطلاع والملاحظة للظواهر الطبيعية ، ولا يقول بالنفى أو الإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر ، وما يقرره علماء

المعامل يؤكد عجز العلم وبالتالى العقل عن أن يكون قادرا على الإحاطة الكاملة أو الفهم المستقل للكون والحياة ٠

ويقول العلامة « كرلسون » : إن العلم لا يعطينا فى مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية ، وذلك من جهة العلل الخفية التى لا تتعلق بها تجاربه ٠ وقد قرر العلماء فى شبه رأى موحد على أن العلم يعجز عن أن يفسر ظواهر الأشياء أو يعللها ولكن يصفها ويقررها، ومهمة العلم فى تقديرهم قاصرة على وصف الظواهر وتقريرها لا تعليلها ، وقد كان فى أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ، ومن ثم رجعوا فى تواضع الى إقرار الحقيقة، فالعلم عندهم لا يفسر شيئا وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية ، وبالتالى يصف ويقرر ، وليس هذا فهما للأشياء ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء الآن أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة، وأعمال البشر وعلاقاتهم التى يمكن استخدام المشاهدة والتجربة، لاكتشاف قوانينها، والعلم يعترف

الآن بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئا .

وهم يقررون أيضا أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية ، وإنما هى حقائق نسبية والبحث العلمى فى صراع لا ينتهى بين الإنسان والطبيعة ، فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها وما زال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة ؟ لقد قطع العقل أشواطا بعيدة خلال ثلاثمائة سنة فهل استطاع التوصل الى الحقيقة ؟ .

ومعنى هذا أن العلم رغم تقدمه لم يستطع بعد أن يحل المشاكل الكبرى المتمثلة فى أصل الكون ونهايته وطبيعته المادية ومنشأ الحياة وخلود الروح .

ومعنى هذا أن العقل جهاز له مقدرته المحدودة، وطاقته التى تقف به على أبواب عالم الغيب ، وهذا قرار العلماء المعمليين الحاسم الواضح ، فلماذا إذن يصرف الفلاسفة وحملة لواء المادية والوثنية وخصوم

الأديان فى الدعوة الى العقل والى إعلاء العقل ، والى اعتباره الواسطة الوحيدة للمعرفة الإنسانية الكاملة ؟٠

الحق أن هؤلاء الذين يحملون هذه الدعوة ليسوا بعلماء وما يقولونه ليس علما ، وإنما هو فلسفة فى نطاق واضح ، هو نطاق المادية التى حددت موقفها مسبقا من الله والعالم الآخر والنبوة والرسالات السماوية التى لا سبيل الى أن نقتنع بها ٠

●●●

- ٥ -

قضــية التقــدم

ما هو مفهوم ((التقدم)) فى الفكر الاسلامى، وما وجــه الخــلاف بينه وبين مفهوم التقدم فى الفكر الغربى ، وهــل التقدم مادى خالص ام انــه تقــدم شــامل : مــادى وروحى ونفسى واجتماعى .

وهل تستطيع الحضارة أن تحقق للانســان هنــاءه وهى تقصر مفهــومها عــلى التقــدم المادى وحــده ؟ .

قضـــية التقـــدم

إن كلمة « التقدم » اليوم من الكلمات البارزة التى تكاد تطبع العصر كله بطابعها ، وقد أسلفت القول أن استعمالها إنما يعنى دائما نوعا واحدا من التقدم :

هو التقدم فى مجالات الحضارة ووســـائل العيش وأساليب الحياة ، والجوانب الاقتصادية والعلمية أى التقدم المادى وحده ٠

وهو تقدم مطلق غير محدود ، يرى أن لا تقف أى حواجز دونه ، أو معوقات فى سبيله وهو يهدف عادة فيما يرمى اليه القائلون بهذا المصطلح ومرددوه : ما يسمى بالرفاهية ٠

ولا شك أن التقدم قانون أصيل فى تاريخ الإنسان، ولكنه لا يقف عند الجانب المادى وحده ، ولا يفترض الإغضاء عن قيم كثيرة فى سبيل اندفاعـه الى آخـر المـدى ٠

وترى النظرية الغربية فى التقدم أن حركة نشأت مع

الثورة الصناعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأنه مرتبط بنظرية التطور ، وأنه لذلك يقدم على أساس مادى ، وجوره هو سيطرة الإنسان على الضرورات الإنتاجية والسيطرة على الطبيعة •

وأنه بهذا المفهوم يحقق للمجتمع البشرى السعادة والحرية ، وتختلف النظرية الإسلامية فى مفهوم التقدم عن النظرية الغربية فى مفهوم التقدم نفسه • فمفهوم التقدم فى الإسلام يدفع الإنسان دائما الى أمام ويؤكد القيم الإنسانية العليا الثابتة وأنه (وهذا هو الجانب الأهم والأكبر) يعنى التقدم المادى والروحى معا ، وأنه لا يضحى بالجانب الروحى فى سبيل المادى ولا يعلى من شأن الجانب المادى وحده أو يفرده بالاهتمام •

●●●

فالتقد فى مفهوم الإسلام : نفسى ومعنوى ومادى، وسياسى واقتصادى واجتماعى ، وفى كل مجال التقدم المادى يكون هذا التقد مشروطا بالقيم الأساسية والأخلاقية بغير اذلال للخلق ، ايمانا بأن الحوافز المعنوية تعطى التقدم المادى قيما عليا •

وقد علت أصوات ظالمة تحاول أن تقنع المسلمين والعرب بأن الدين (أى الإسلام بمفهومه دينا ونظام مجتمع) معوق عن التقدم ومانع من النهضة وأن على المسلمين والعرب اذا أرادوا التقدم أن ينفصلوا عنه ، ولا ريب أن تلك الأصوات ليست صادقة فى دعوتها وأيضا ليست صادقة من الوجهة العلمية الصحيحة ، وذلك أن خروج أمة من مقدراتها وقيمها ومزاجها النفسى لن يكون بحال من الأحوال عاملا من عوامل تقدمها وإنما يكون عامل استعبادها واذلالها وانصهارها فى بوتقة النفوذ الاستعمارى الواسع الذى يريد أن يحتويها ويذيبها ٠

* * *

لقد كانت الدعوة الى إعلاء مفهوم التقدم المادى فى عالم الإسلام والعرب بالتخلص من عوامل التقدم المعنوى أو بتحرير التقدم المادى من الضوابط الأخلاقية وعوامل التقوى والإيمان ، مؤامرة ضخمة حتى يصبح العرب والمسلمون للاستعمار أسلس قيادا، ولينصهروا فى بوتقة العالمية فتضيع شخصيتهم

« ٧ »

وتنمحى طوابعهم ، وهى دعوة مضللة زائفة وليست صادقة لأن أوربا لم تفعل ذلك ، لقد عادت أوربا الى جذورها وقيمها اليونانية والرومانية حين اندفعت تبحث عن أسباب التقدم .

واذا كانت أوربا ، أو الغرب عامة قد انفصل عن الدين فذاك لأنه اعتبر المسيحية دخيلة عليه ووافدة، وأن تشكيله النفسى كان قائما من خلال الفلسفة اليونانية والأنظمة الرومانية ، أما فى عالم الإسلام والعروبة فإن الأمر يختلف ، فإن هذه الأمة قد تشكلت قبل أربعة عشر قرنا والإسلام جزء من كيانها :

من حيث هو دين وعبادة للمسلمين ، ومن حيث هو نظام وثقافة ومنهج حياة للمسلمين وغيرهم ، ولأهل هذه البقعة جميعا .

* * *

ولا يمكن لأمة تشكلت والدين جزء منها ، فكان عميق الأثر فى كيانها العضوى ، وقد صاغ مزاجها النفسى وذاتيتها ، أن تخلص منه من بعد إلا اذا أعيد

تشكيل هذه الأمة من جديد ، ولأمر ما نزلت الأديان الثلاثة الكبرى فى هذه المنطقة .

ولذلك فإن محاولة إخراج المسلمين والعرب من الدين بعامة أو الإسلام خاصة إنما هى تجربة مستحيلة ومضادة لاتجاه التاريخ ومعارضة لروح التقدم ومخالفة لما انطبع عليه مزاج المسلمين وذوقهم وما تشكل عليه أدبهم وفنهم ومناهج الحياة فى مجتمعهم .

هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن الإسلام - مخالفا لغيره مخالفة تامة - لم يكن عامل تأخير أو جمود بله عامل تقدم ، وليس الإسلام هو الذى وقف أمام تقدم العلم أو تطور المجتمعات أو نهضة الأمم ، لأنه كان بطبيعته المصدر الأول بالبحث العلمى ، والمنشىء الأساسى للمذهب العلمى التجريبى الحديث ، بل إن الحضارة الإسلامية التى أقامها إنما كانت نتاج الإيمان بالله وتحقيق دعوة الله الداعية الى النظر فى الآفاق واستطلاع أسباب القوة والعمارة فى الأرض .

وقد أكدت كل الأحداث التاريخية والدراسات العلمية أن الإسلام قادر على إعطاء طابع الحركة ، والبناء

في مجال التقدم فى ظل مفهومه الجامع المتكامل :

مفهوم التقدم على جميع الجبهات ، دون إعلاء الجانب المادى وحده أو تضحية الجانب المعنوى من أجل الجوانب الأخرى ، ومن هنا فقد سقطت النظرية الوافدة التى حملها كثير من الكتاب والتى كانت تدعو الى تبرير مفهوم التقدم الغربى ، هذا المفهوم المسموم الذى يفتح الباب لذوبان المسلمين وملاشاة شخصيتهم .

ولقد حاول بعض الباحثين تقرير نقطة الخلاف بين مفهوم التقدم فى الإسلام ومفهوم التقدم فى الغرب ، أشار العلامة (بسمر) الفرنسى الى ذلك حين قال :

إن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين ، أما فى دين الإسلام فالعكس من ذلك أنه - أى الدين الإسلامى - لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم ، فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية ، والغربى اذا صار عالما ترك دينه ، أما المسلم فإنه لا يترك دينه إلا اذا صار جاهلاً ، وبأى وجه يمكن نسبة التقدم الحالى فى الغرب الى الدين ، والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره

وبأى وجه يمكن نسبة تأخر المسلمين الحالى الى دينهم ، وفى عام ٧٤٢ م أى بعد مائة وإحدى عشرة سنة من وفاة (محمد) عليه الصلاة والسلام كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدونى ، وفى عام ١٥٦٦ م عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين ، ومن هذا يظهر أن عظمة الإسلام امتدت ألف عام وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول الى مثل هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتجديد .

* * *

وقد أشار الى مفهوم التقدم وارتباطه بالإسلام العلامة جوستاف لوبون حين قال للشباب العربى والمسلم ممن زاروه فى منزله بباريس فى أوائل هذا القرن (إن السبب فى انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة ، وأن قوة الدين قوة أدبية ، كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه ، وأن العلوم الحديثة لا تفيد المسلمين إلا اذا اقترنت بدينهم ولم تنفصل عنه ا هـ .

وإذا وصف المسلمون فى العصور الأخيرة بالتخلف، فليس هناك من دليل علمى يؤكد أن الإسلام كان مصدر هذا التخلف، بينما هناك عشرات الأدلة العلمية على أن هذا التخلف كان مصدره انحراف المسلمين عن الإسلام فى مناهج حياتهم الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها .

وتكذب كل الوقائع ما يذهب اليه كتاب الاستعمار ودعاة التغريب وخصوم العرب والمسلمين من أن التخلف فى العالم الإسلامى إنما يعود الى جوهر الإسلام الداعى الى التقدم والنهضة ، والذى حين طبق تطبيقاً صحيحاً بهر الدنيا بما قدم لها من آيات العلم والفن ، وما شكلت حضارته من حياة كانت غاية فى السماحة والحيوية والإنتاج والبناء فى شتى المجالات فى الحياة .

* * *

وقد ارتبط تخلف المسلمين تاريخياً بالتخلى عن أصول الإسلام ومفاهيمه ، والانحراف عن طابعه وجوهره ، والتماس أساليب وافدة لم تزد المسلمين إلا تأخراً وجموداً .

إن الأسلوب الذى اتخذه قادة المسلمين فى تدبير شئون الدولة وبناء الحضارة من شأنه أن ينقض مزاعم الذين يتحدثون عن جوهر الإسلام دون أن يتعمقوا مضامينه الحقيقية ودعوته الى التقدم الكامل المعنوى والمادى ، فقد حمل المسلمون أمانة العلم والحضارة ألف عام وقدموا للإنسانية منهج المعرفة الإسلامية ذى الجناحين : القلب والعقل .

كما قدموا لها المنهج العلمى التجريبى نواة الحضارة الحديثة .

وقدموا للإنسانية منهجاً فى الاقتصاد والقانون والاجتماع والتربية ، قام على التوحيد والأخلاق ، والإيمان ، لن تجد الإنسانية مثيلا لهمهما أبدعت من أيدلوجيات ومذاهب وفلسفات ، وسوف تعود اليه فى القريب مقتنعة بأنه هو منهج التقدم الأصيل .

● ● ●

- ٦ -

قضية العلوم والإنسانيات

هناك منهجان لكل منهما مقاييسه وأدواته في الفهم والبحث. منهج العلوم الذى يقوم على تجربة المعمل ، ومنهج الانسانيات الذى يقوم على مقاييس تختلف عن تجربة المعمل لأنها ترتبط بالانسان الذى لاتحده مقاييس المادة ولا مقاييس الحيوان. ان أخطر ما تطرحه الفلسفة المادية أنها تتخذ مقاييس العلوم المادية أساسا للتطبيق على الانسان الذى هو : روح ومادة وعقل وقلب .

قضية العــلوم والإنسانيـات

من أخطر النظريات التى صدرت عن الفلسفة المادية إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج الرياضيات والمناهج التجريبية ، أو إخضاع الإنسان نفسه لتجارب الحيوان .

وقد كان من المقرر أساسا لدى الباحثين والعلماء أن هناك مجموعات من العلوم :

* العــلوم الرياضيــة ويتبــع فى بحثهــا المنهج الرياضى .

* العلوم الطبيعية والبيولوجية ويتبع فى بحثها المنهج التجريبى .

* أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهى لا تخضع للمنهج الرياضى ولا للمنهج التجريبى ، وإنما تخضــع لمنهج خاص يتــلاءم مــع طابعهــا النفسى والوجدانى والذاتية .

ذلك أن موضوع العلوم الرياضية والطبيعــة هــو

المادة والطاقة والحياة ، أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فإن مادتها هو الإنسان : سواء أكان فردا أو جماعة أو شعبا أو أمة .

●●●

واذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم الى التجربة العلمية فى الفصل بين الفروض المختلفة ، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تملك ما يملك العلم الطبيعى من التجربة العلمية ، ذلك أن هذه العلوم الإنسانية تتصل بالنفس والروح والعقل ، وكلها لا تخضع للقوانين التى خضعت لها المادة ، ولا للقوانين التى أمكن استخلاصها من دراسة الحيوان ، فالإنسان حيوان وزيادة ، وكل القوانين التى تطبق على الحيوان لا تصلح له لأنه أكبر منها .

وأبلغ أخطار هذه النظرة التى تحاول أن تخضع العلوم الإنسانية والاجتماعية لتجارب العلوم الرياضية أو تجارب الحيوان أنها تحاول اعتبار الإنسانية قيمة مادية خالصة ، بينما يزيد الإنسان على الحيوان شيئا آخر كبيرا « هو العقل » مناط التكليف ، ومعقد الأمانة

التى حملها، والمسئولية الأدبية والتبعة الأخلاقية[١].

● ● ●

ومن هنا تقف على أخطر خلاف جذرى بين مفهوم الإسلام ، ومفهوم الفكر الغربى ، ومن هنا كانت مناداة الفكر الإسلامى بالتماس منهج خاص لدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، يستمد مفاهيمه من الإنسان نفسه ، ومن سنن الله فى الكون ، وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية ، له مقوماته وقوانينه .

ومن هنا فإن الإسلام يطرح قضية العلم جميعها فى ضوء مفهومه المخالف للمفهوم الغربى .

● ● ●

فما هو العلم وما هى الفلسفة ؟ .

● ● ●

---

(١) راجع دائرة معارف فريد وجدى ، وكتاب الأستاذ الغمراوى بين الدين والعلم .

يجيب على هذا الدكتور الغمراوى فيقول :

ليس كل ما نسب الى العلم ينتمى اليه ، ولا كل ما ينتمى الى العلم مفروغ من اثباته ، بل كما أن فى العلم الحقائق التى لا شك فيها ، فإن فيه أيضا القضايا المفتقرة الى الإثبات ، أما حقائقه فهى مفردات المشاهدات فى ميادين العلم المختلفة ، وما يستنتجه العقل منها حسب قوانين التفكير الفطرية ، ولكن ما كل ما ينتمى الى العلم من هذا النوع هو علم .

والفروض التى يقدمها العلم فى ميادينه المختلفة ملتمسا بها تفسير مشاهداته هى عنده فروض رهن التجربة والامتحان ، وهذه بعينها هى التى يستيقنها المشغوفون بكل جديد ، وموقفهم هذا تلقاء العلم يشبه مواقف العوام تلقاء من يكبرون من الأبطال الخرافيين أو الحقيقيين ، والذين يكثرون باسم العلم وليسوا منه ، هم فى التعصب اخوان العوام، ينتصرون لكل جديد كما ينتصر العوام لكل قديم ، أولئك هم عوام الخواص » .

● ● ●

ومن هنا يصل الفهم الإسلامى للعلم الى منطلق للعلوم الإنسانية والاجتماعية هو « علم الفطرة » هذا المنطلق الذى يحقق التطابق بين العلم والإسلام ، وأن مقياس الأدب والفن والحياة جميعا انما يقوم على التطابق بين هذه المفاهيم وبين الفطرة التى فطر الله الناس عليها « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم (١) » .

يقول الدكتور الغمراوى :

اذا قدر للإنسان فى علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدى الى فلسفة الحاضر ، عندئذ يرى الإنسان أن سنن الله فى الكون واحدة فى اطرادها وتناسقها وفى دقتها وصرامتها ، لا سبيل الى تغييرها أو الإفلات من عواقب مخالفتها ، سواء ذلك من ناحية المادة أو الطاقة فيها ، وناحية النفس بالروح فى الأفراد والجماعات .

---

(١) سورة الروم : ٣٠

فإذا كان العلم قد اكتشف سـنن الله الفطـرية فى المادة ، فإن عليه أن يهتدى الى سنن الله فى الإنسان والمجتمع ، لقد تحقق الكشف عن سنن الفطـــرة فى الروح ، روح الفرد وروح الجماعة ، إن كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم .

* * *

فإن لله سننا لا تتخلف جرت فى الأولين بالإهــلاك حين عصوا ، وابتغوا أهواءهم وهى جارية ولا شك فى الآخرين :

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها (١) » .

ونحن اذا حاولنا أن نحدد موقف الإسلام من هذه الحضارة نجد أنها بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات ، فإن المدنية الكاملة يجب أن يـكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون

---

(١) سورة الحج : ٤٥

فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك ، وهذا لا يتحقق لأى مدنيـــة من المدنيات إلا اذا قامت على الحق فى جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس ، وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيــوع الباطل فى هذه النواحى ، ودليل بعد هذه النواحى عن الفطرة » ا ٠ هـ ٠

* * *

وقد نعى كثير من الباحثين نظرة العلوم العــــادية الى الإنسان ، ومحاكمتهم الى القوانين التى اكتشفوها فى مجال العلوم أو الحيوان ، وكان أقصى ما وصـل اليه علماء المادة هو القول بأن الإنســـــان ما هو إلا ظاهرة من الظواهر العامة، ولذلك فلا بد أن يخضع فى حياته الاجتماعية الى قوانين المادة والحيوان ٠

ومن هنا نشأت مذاهب عـــــلم النفس الفرويدى والوجودية ، وفلسفات متعددة تحاول أن تحـــــاكم

« ٨ »

الإنسان (الذى هو روح ومادة) الى ما يحـــاكم به الظواهر المادية ٠

وهنا نقطة الخطأ التى أحـــدثت ذلك الاضطراب العجيب الذى يعيشه العالم والحضارة من خلال أزمة العقائد والفراغ والضياع ٠

● ● ●

- ٧ -

قضيـــة التجـــديد

ما هو مفهوم القديم والجديد بين الفـــكر الاسلامى والفــكر الغربى ، وهل التجــديد مطلق أم انه يقوم على قواعد مضبوطة ، وهل التجديد فى الآداب كالتجديد فى العلوم ؟

ان الاســـلام يطرح التجديد مفهوما اكثر عمقا واوسع مدى واكثر اتصـــالا بمفهـــومه القائم على الوسطية والتكامل والحركة .

قضيـــة التجـــديد

كلمة « التجديد » من المصطلحات التى اختلف فيها الرأى وأطلقت إطلاقا جريئا دفعها الى الانحـراف، واتكأ عليها النفوذ الاستعمارى والتغريب فى محاولة لإلقاء الكراهية والازدراء للتاريخ واللغة والتراث .

واتهام هذه القيم جميعا بالتخلف .

وكان معنى التجديد فى نظر دعاته : (الانفصـال الكامل عن كل قديم ، والاتجاه الشامل الى كل جديد دون تحفظ أو اختبار) .

وفى مواجهة التجديد كانت هنـاك الحمـلة عـلى التقليد واتهامها بالرجعية غير أن امتداد هذه الدعوى وبلوغها أقصى مدى التحدى ، كشف عن خلقيـات الداعين لها وأهدافهم بما ارتبطت به هذه المصطلحات من غايات بعيدة المدى ، ومطامع لا حد لها ربطتها بالتغريب والنفوذ الاستعمارى .

* * *

ذلك أن الدعوة الحقة حين تدعو الى التجـــديد لا تفصله عن القديم ولا تعزله عن الماضى ، بل تجعل من الماضى سبيلا الى الجديد ، ومن التطور رابطـة بين القديم والحديث •

والغربيون أنفسهم الذين يحاول دعاة التجـــديد « المطلق » التماس مناهجهم ، إنما يفهمون التجديد على هذا النحو ، متصلا بالقديم نابعا منه مستمدا من جوهره ، فلا انفصال مطلقا بين الأصالة والتجـديد ، أو بين الماضى والحاضر ، وقد اعترف أصحاب النهضات والحضارات بذلك الترابط الأكيد بين الماضى والحاضر ، القديم والجديد ، وذلك استمدادا من مفهـوم علمى أصيل ، هو الأصول الأساسية فى بناء كل جديد •

وقد ذهب العلماء العقليون والتجريبيون معا ـ وهم أبعد الناس عن أوهام الفلسفة ـ الى أن المعنى الحقيقى لكلمة (جديد) هى فكرة نقد شىء فى طور التحـول ، فى حين أن كلمة (قديـم) تعنى الموجـود الساكـن الموضوع مسبقا ، وأن كلمة (قديم) استعملت عـن العرب بمعنى الموجود لم يزل •

* * *

وتجمع المفاهيم العلمية ، على أن التجـديد فى الآداب كالتجديد فى العلوم ، لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون بين الماضى والحاضر ، حيث يبنى العمل فى حاضره على أساس العمل فى ماضيه ، وأن التجديد هو إبداع الحى فى آثار الميت ، ولا شك أن التجـــديد قانون طبيعى وقانون ثابت ، فإن لم يــكن تجديــد فتدهور وانحطاط ، وشأنه فى الفكــر هــو شــأنه فى الكائنات الحية ، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده التى تقرر بأنه لا ينفصل عن أرضيتــه وقاعــدته ولا ينقطع عن تطوره الطبيعى .

ولقد أكد الباحثون المنصفون قيمة القديم ، فقال كارل بيرسون : إن من أقوى المــؤثرات التى تحفــظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تخلخله ، تلك الصفة التى نبغضها ، صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول بأن العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات الإنسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات ، وهذه الصفات هى بمثابة الكور المتلظيــة نيرانــا ، والتى بدونها لا نستطيع أن نفصل بــين المعــدن الصحيــح والفضلات الزائفة، وهى التى تحمى الجسم الاجتماعى

من أن يترك معرضا لتغيرات تخريبية فجائية قــد تكون غير مفيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر».

أما المحافظة فهى قانون طبيعى وسنة كونية ، وهى التى تحمى الأمم من آثار الغزو الخــارجى ، وبهــا استطاع العرب والمسلمون الصمود فى مهاب الغــزو التترى والصليبى والاستعمارى جميعــا ، وهى التى تحمى شخصيات الأمم من أن تزيف أصالتها أو تمسخ ذاتيتهــا .

* * *

ولقد كانت ظاهرة المحافظة فى فترة الضعف والتخلف من أشرف الظواهر فى تاريخ الأمم، فهى قد تمثلت فى نوع من الانطواء على الذات فى مواجهة الأخطــار الجائحة، فكانت روح المحافظة اذ ذاك نوعا من الدفاع عن الذات ، وهى التى حفظت للمسلمين والشــعوب لغتهم وشريعتهم وتاريخهم .

وقد أكد علماء التاريخ المنصفون جميعــا ، بأن ظاهرة المحافظة التى مرت بالفكر الإسلامى خــلال الغزوات التترية والصليبية والاستعمارية ، هى بمثابة

موقف حضارى أصيل ، مكن من صيانة القيم من الانحراف والانهيار ، فى ظل إعصار دخيل يدمر كل شىء ، أما « التقليد » فإن للفكر الإسلامى إزاءه موقف واضح .

ذلك أن التقليد هو المتابعة بغير يقين عقلى ، أو اقتناع برهانى ، والمقلد فى مفهوم الفكر الإسلامى لا يعد عالما ، ذلك أن العلم إنما هو المعرفة الحاصلة عن دليل ، وقد ذم الإسلام أصحاب الرأى الذى لا يستند الى دليل ، وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد والتبعية .

وأكد أن التقليد يمنع « الأصالة » وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية .

ويقف الفكر الإسلامى من « التقليد » موقفا واضحا فى كلا مجاليه : تقليد القديم ، أو تقليد الوافد :

- تقليد القديم بغير برهان .
- تقليد الوافد الأجنبى بغير ضرورة .

وكلاهما يجب أن تحرر منهما الأمم التى بلغت مرحلة الرشد الفكرى ، وتسقط فيهما الأمم الضعيفة

وأخطر الأمور أن تدعى الأمم الى التحرر من تقليد قديمها لتقع فى تقليد الأجنبى عنها ، وكلاهما يفسد الشخصية والذات ، ولكل أمة ثقافتها وقيمها ومزاجها النفسى والاجتماعى ، فلا تحتاج الى تقليد أمة غيرها فى أسلوب تفكيرها ، أو تعتنق قيمها ومفاهيمها .

ولقد كان الفكر الإسلامى متفتحا دوما على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته ، ولا شك أن التغريب إنما يستهدف من الدعوة الى « التجديد المطلق » بمقاييسه المسرفة البعيدة عن الأصالة والتكامل ، ومن هجومه على القديم إنما يريد أن يدفع العرب والمسلمين الى الانصهار فى ثقافات الأمم والخروج من مقوماتهم وشخصيتهم .

ذلك أن لكل أمة فطرتها وثقافتها الخاصة التى تقوم على أساس تراثها ، ولقد حذر الإسلام من خطر التقليد فى كلمة رسول الله الجامعة .

« لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه (١) » .

---

(١) اورده الامام ابن كثير فى تفسيره .

قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ٠
قال : فمن ؟

● ● ●

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

اذا كان المسلمون يطلبون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا خارجه ، وهم يخطئون طريق الرشد اذا قلدوا الغرب فى نظمه الاجتماعية ٠

ان التقليد رق ، وقد حرر الإسلام منه الإنسان الى الأبد ، ذلك أن التقليد هو أداة الانحطاط ، وأن أخص خصائص التقليد : هو الاتباع من غير روية ولا فهم ، والاقتناع لا عن تنكير ولكن عن ثقة السائل بالمسئول، والتابع بالمتبوع ، وقد تبرأ الإمام الشافعى من تبعة من يقلده ، فيأخذ برأيه دون أن يقف على دليله» ا هـ٠

وبالجملة فإن التقليد هو ابطال وظيفة العقل ، ولقد جرى المسلمون والعرب شوطا طويلا فى السنوات المائة الأخيرة فى تقليد الغرب دون حصانة فى الحفاظ على مقوماتهم ، ودون استنارة فى تقليب ما يأخذون،

وكانوا ازاء ذلك كله فى موقف المضطر (تقليب) الذى لا يملك إرادته الحرة ، أما اليوم فإن الأمر يختلف ، فقد انكشف كثير من الحقائق أمام العقل العربى الإسلامى ! وكان للأحداث الخطيرة أثرها فى اعادة النظر فى كثير من النظريات التى تقبلها البعض على أنها مسلمات ، بينما هى نظريات تحتمل الخطأ والصواب .

● ● ●

وصدق « تارد » الذى عرض لمثل هذه المعانى فى كتابه (قوانين التقليد) حين قال : ان الفكرة التى لا تتفق مع أفكارنا والتى تصطدم فى نفوسنا بعقيدة أو تضاد رغبتنا أو حاجتنا ، هى فكرة مرفوضة لا نقلدها ، ففى اللغة لا نقبل الكلمة ولا نحبها إلا اذا استجابت لحاجة الفكرة ، والا اذا وقعت على ما نعتقده وما نحسه فى نفوسنا .

والقانون المقبول هو ما استجاب لعقائدنا وما سد نقصا فى حاجتنا » ا هـ .

●●●

- ٨ -

قضـــية الأصـــالة

ما تزال قضية الأصالة من القضايا الخطيرة : علاقة الأصالة بالتجديد ، وعـــلاقتها بالتاريخ ، ولقد خاضت الأقلام فيها وطرحت مفاهيم متباينة مستمدة من النظرية الغربية ، غير أن الاســـلام له نظرته للاصالة ومفهومه لها .

قضـــية الأصـــالة

إن مفهوم الأصالة من هــذه المفاهيــم الذى اختلف فيها الفكر العربى الإسلامى عن الفكر الغربى، تقديرا وعمقا ، ذلك أن الفكر الغربى الــذى ساقته نظــرية التطور سوقا الى الإيمان بالتغير الــكامل ، لــم تعــد تهمه من قضية « الأصالة » الا ظلالهــــا ، بينما يركز تركيزا كبيرا على « التجدد » ، ولا يرى أن «الأصالة» تمثل أكثر من البعد التاريخى للتحول ·

ولذلك فإن النظرة الى الماضى يخالطهــا كــثير من الإحساس بالاستغناء أو محاولة التمرد على القديم ، وذلك جريا مع التاريخ الطويل الذى واجهت به أوربا ماضيها اللاهوتى ، وتراثها المتصل بالدين والزهادة والــرهبانيــة ، التى هاجمتهــا مختلف النظـــريات الحديثة ، وحملت عليها الفلسفات حملة عنيفة ·

ومن هنا كان احساس الفــكر الغــربى بالأصـــالة ضعفا خافتا ، لأنه فصل تماما بين فكره الحديث وبين

ذلك التراث ، حتى إنه حين أنكر هذا الماضى وتحرر منه ارتد مرة أخرى الى الارتباط بالوثنية الإغريقية وجددها وأحياها، حتى اتخذ من أساطيرها أصولا لنظريات علم النفس والوجودية ، فقد اعتمد سارتر وفرويد فى أغلب النظريات التى حاولوا إعطاءها طابع العلم على أساطير اليونان الخرافية .

واذا كان هذا هو موقف الفكر الغربى الحديث انفصالا عن التاريخ والتراث القديم ، فلا بد أن يكون مفهوم الأصالة باهتا ومضطربا .

* * *

أما مفهوم الأصالة فى الفكر الإسلامى فقد كان دائما بمثابة أساس البناء ، فالتجدد قوة من القوى التى اعترف بها الإسلام باسم « الاجتهاد » وجعلها علامة على الحركة واليقظة ، وجعلها مرتبطة بالأصالة رباط القديم بالجديد ، والماضى بالحاضر ، فالأصالة هى ذلك التراث النقى والميراث الحى الذى تشكل عليه الفكر الإسلامى استمدادا من القرآن أولا ، والسنة الصحيحة تفسيرا له وتطبيقا ، ثم نما الفكر الإسلامى حلقة بعد

حلقة ، وعصرا بعد عصر فى ظلال الأصالة لم ينفصل عنها ولم ينقطع ، وامتدت شرايينه على مدى العصور ، وظل محافظا على أصالته فى أحلك الأزمات وأسوأ فترات الضعف والتخلف • وكان القرآن هو الدم الذى يجرى فى هذه الشرايين لم ينقطع ولم يتوقف •

فالأصالة فى مفهوم الفكر الإسلامى « تجدد » متصل يتجه نحو الكمال ، ويحفظ القيم الأساسية وينميها ، ثم هو مقاومة دائمة لدوافع الانحراف والتخلف معا ، فالأصالة ترتبط بالتجدد فى نفس الوقت الذى ترتبط فيه بمقاومة التبعية •

* * *

والفكر الإسلامى حين ينفتح على « المعاصرة » لا ينسى أبدا قيمه وذاتيته التى لا تذوب أو تنصهر فى معرض النقل والاقتباس ، فالأصالة لا تحد من المعاصرة والتجديد ، ولكنها تعمل على تحرير القيم من التبعية والتقليد •

ذلك أن أخطار الشعوبية فى تاريخ الإسلام القديم، والتغريب فى تاريخه الحديث ، إنما كانت تحاول أن توسع مجال المعاصرة ، بحيث تقضى على الأصالة ، أو تذيب القيم الأصيلة للفكر الإسلامى فى بوتقة الأممية .

ولقد كان الإسلام فى تاريخه كله قادرا على تحقيق الالتزام بالعصر ، والتقدم والتجديد دون أن يفقد الأصالة .

وليست الأصالة تشبثا بالماضى أو تعصبا له ، وليست هى تقديس للتاريخ ، ولكنها إيمان بالقيم الثابتة ، وتأكيد للوجود الذاتى ، ومحافظة على كيان الأمة فى أصالة فكرها .

* * *

ذلك أن الأخطار والتحديات التى واجهت الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى العصر الحديث كانت جميعها تحاول أن تقضى على مضمون الأصالة على النحو الذى هو مفهوم هذا الفكر .

وفى طريق القضاء على الأصالة كانت الدعوة الى

« التساهل » (١) الذى دعا اليه كثير من كتاب التغريب باسم التسامح فى تقبل الآراء الغربيــة ، أو « تحــرير الفكر » (٢) بحيث تنسى مقررات فكرك وعقائدك فى سبيل تقبل الرأى الوافد ٠

إن الدعوة الى تغليب العصرية على الأصالة دعوة مسمومة ، والقول بأن الأصالة هى التاريخ ، هو قول زائف ، ذلك أن الأصالة فى الفكر الإسلامى العربى إنما تمثل تلك الحصيلة الضخمة التى أقامها القــرآن ، ونماها الأئمة الأبرار من مفــكرى الإسلام على مدى أربعة عشر قرنا ، وهى ليست تراثا قديما وإنما هى ميراث حى متجدد لم يتوقف عن الحياة لحظة واحدة فى مواجهة تطور المجتمعات والحضارات ، وكان (ولا يزال وسيظل) قادرا على العطاء ٠

إن كلمة « العصرية » فى الفكر الغربى تحمل صورة الانسلاخ من العقائد ، والتحرر من القيم ، ولسنا نحن الذين نقول هذا بل تقوله إحدى الكاتبات الغربيات اللائى انكشف لهن نور الحقيقــة ٠

* * *

---

(١) فرح انطون ــ مجلة الجامعة م ٤ سنة ١٩٠٣
(٢) مجلة العصور ١٩٣١

تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة « مريم جيلة » :

إن البلاد المسلمة قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة ، ومنها مصطلح « العصرية » وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى .

* * *

فالعصرى يراد به رجل لا يرضى بالإسلام دينا معقولا مفهوما لدى العالم أجمع ، كما يراد به رجل يحاول أن يفسر الدين والعقيدة تفسيرا جديدا يثبت به أنه ليس هناك تعارض بين القيم الإسلامية وقيم الحضارة الغربية .

ان الرجل العصرى وان لم يتفق والإسلام إلا باسمه يطلق حكمه على الإسلام على أساس مبادىء وأهداف استوردها من الغرب ويظنها - شعوريا أو لا شعوريا - أرفع من المبادىء الإسلامية ، وكل شىء من الإسلام يناقض تلك الأهداف المستوردة .

ولا شك أن العصرية أو العصرنة فكرة تغريبية خطيرة يراد بها تحريف الأصول الإسلامية لتبرير

الواقع الحضارى القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الإسلام أو مفهوم الدين بعامة .

فالعصرية محاولة فرض مبادىء وأهداف غربية ترمى الى احتواء الفكر الإسلامى ، وجعله خاضعا للواقع الغربى فى قيمه ومذاهبه مع تجاهل واضح لما بين الفكرين الإسلامى والغربى من تباين عميق فى قضايا كثيرة ، وانه لا سبيل لتحقيق (العصرنة) إلا بإخضاع الفكر الإسلامى للفكر الغربى ، وهو ما لا يمكن أن يحدث .

* * *

فالفكر الإسلامى بأصوله القائمة على التوحيد كان دائما قادرا أن يحتفظ بذاتيته الخاصة ، يأخذ من الفكر البشرى ويترك ، وقد عجزت كل القوى ـ فى أحلك الظروف والأوقات ـ أن تصهره أو تخضعه أو تفقده مقوماته .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تحتوى الديانة والفكر اليهودى ، ثم احتوت الديانة والفكر

المسيحى، فإنها قد عجزت عن أن تحتوى الإسلام والفكر الإسلامى الذى أخذ منها ورفض ، واستطاع بعد صراع طويل أن يتحرر منها وأن يكشف عن منطقه وذاتيته مستمدا أصول ذلك كله من القرآن نفسه .

وإذا وقف الإسلام موقف « الثبات » والصمود أمام محاولات احتوائه أو صهره ، ووصف ذلك من دعاة التغريب أنه الجمود أو التعصب ، وهى عبارات ظالمة لا يستطيع الخوف منها أن يذل الإسلام وفكره للسيطرة الغربية .

وقد أكد كثير من المفكرين الغربيين المنصفين ما ذهبنا اليه من أن الإسلام والفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى والبلاغة العربية لا يمكن تفسيرها فى ضوء المذاهب الغربية .

* * *

أما إذا كانت (العصرنة) تعنى دفع الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة العربية الى مواجهة الحياة العصرية والالتقاء بالحضارة العالمية والفكر البشرى أخذا

وعطاء ، فإن ذلك أمر قائم لم يتوقف يوما ما ، فقد كان الفكر الإسلامى دوما فكراً مفتوحاً قادراً على الأخذ والعطاء وكان له من آفاقه المنظورة ما يمكنه من الالتقاء بمختلف النظريات الحديثة البناءة التقدمية فى مجال الاقتصاد والقانون والاجتماع .

ولم يكن الإسلام بقيمه الثابتة عاجزا يوما عن الحركة والتقدم والعطاء ، بل إن هذه القيم الأساسية من عقيدة وشريعة وأخلاق كانت هى أقوى الحوافز لإعطاء البشرية قيمة إنسانية أعلى من مفهومها المادى الخالص .

وليس من شأن الإسلام أبداً ولن يكون أن يبرر انحراف الفكر الغربى أو الحضارة الغربية القائمة ، أو يقبل من مفاهيمها ما يختلف مع جوهر التوحيد، أو ما يتعارض مع أصوله القائمة على دحض الربا والاباحية والإلحاد والوثنية .

لقد استطاع الإسلام أن يحرر الإنسانية من أعظم أغلالها وهى الوثنية ، واستطاع الفكر الإسلامى أن يتحرر من العبودية لغير الله وحده .

وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعدالة ، التى عجزت الحضارة الغربية عن إطلاقها ، والتى باتت معضلة العصر وأزمة الإنسان المعاصر ، هذا فضلا عن أن تكامل الإسلام جامعا بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة قد أعطاه قيما عقلية ونفسية وسعت مجال إنسانيته وسماحته ، وقضت على كثير من الصراعات والأزمات ، وخاصة أزمة القلق والضياع التى يعانى منها الفكر الغربى .

أما التراث الإسلامى العربى فهو ليس قديما متحفيا منفصلا عن الواقع ولا عن المجتمعات ، بل هو ميراث حى ملىء بالحيوية لم يتوقف عن التفاعل فى المجتمع الإسلامى والفكر الإسلامى خلال أربعة عشر قرنا كاملة ، دون انفصال أو توقف ، وهو تراث بناء تقدمى ما تزال مفاهيمه نابضة بالحياة قادرة على عطاء البشرية .

●●●

- ٩ -

مفهـــوم البطـــولة

ما تزال حركة الغزو الثقافى والتغريب تطرح مفاهيم وافدة لمفهوم البطولة ، ولا ريب أن للبطولة فى الفكر الاسلامى مفهوما مباينا لمفهومها فى الفكر الغربى ، ولقد خلد المسلمون البطولة تخليـــد عمل ، وكرهوا وثنية البطولة ورفضوا الاحجار.

مفهـــوم البطـــولة

« البطولة » قيمة من القيم الإنسانية ، غير أن لهـا فى كل فكر مفهوما ، ومفهومهـا فى الفكـر العـربى الاسلامى يختلف عن مفهومها فى الفكـر الغـربى ، وكذلك كل القيم واحدة فى الاسم ، متباينة فى المفهوم، ومرجـع هـذا التباين اختـلاف البيئات والثقـافات والأديان والأصول الأساسية التى قام عليها فكر الأمة وتشكلت عليها ذاتيتها ومزاجها النفسى والاجتماعى.

ويرجـع مفهـوم البطولة فى كل فكـر بشرى الى العوامل التى شكلت هذا المفهوم ، والتاريخ الذى أثر فيه واستفاض عنه، وأن الوعى بهذه الأصول والعوامل من شأنه أن يضعنا على الحقائق التى تختلف فيهـا الرؤية ، ووجهة النظر بالنسبة للبطولة وما يتصل بها من مفاهيم الزعامة والعظمة ، وما يقوم من تفـرقة واضحة بين النبوة والعبقرية ، وما يتبع هذا من مفهوم للمأساة وللفن ، وللتصوير المسرحى لشخصية البطـل ونهايته ، وفى فكرنا الإسلامى يبدو الأمـر واضحـا

وضوحا جليا ليس فيه خفــاء ، فنحن نــكرم البطــولة ونضعها موضع التقدير ، ولــكنا نختلف عن الفكــر الغربى فى أساليب تقديرها وتكريمها .

●●●

ونحن نجعل أسس تقدير البطولة عملها لا شخصها، ونذلك فنحن نــكرم العمــل الذى هو بمثابة الإضافة الحقيقية التى قدمها لأمته وللإنسانيــة ، وهذا هو ما يسمى بالتخليد المعنوى ، والــذى يقوم على تقــدير الكلمة أو العمل ، ولا ينصب أبداً على تقدير الفــرد أو تقديسه أو وضعه فى صــورة يبدو معهــا فى مجال التأليه أو ما يشابهه على النحو الــذى عرفه الإغريق قديما حين رفعوا أبطالهم الى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة ، أو على ما يفهمه الفــكر الغربى الذى يستمد أصوله من النظرة الإغريقية التى ترمى الى تجســيد الأبطال فى صورة مادية ، والــذى يرجــع أصــلا الى الطابع الوثنى الذى يطبع فلسفات اليونان والهنود.

أما الإسلام ومنه يستمد الفكــر الإســلامى أصــوله وقيمه فله طابعه الذاتى المجــرد ، ومفهومه الصريح

الواضح لهذه القيمة الإنسانية ، فبطولة الإسلام هى : بطولة فكر لا بطولة أحجار وتماثيل ، فليس فى الإسلام هياكل تدمر ولا بعلبك ولا الأهرام ، وليست (تاج محل) فى الحقيقة تصويرا صادقا لمفهوم الإسلام ولكنها انحراف عنه . وقد أوفى الكثير من الباحثين هذا المعنى وفى مقدمتهم الدكتور عبد السلام العجيلى الذى يقول :

ربما عد البعض هذا الفهم نقصا ولكنى أعتبر من مزايا العبقرية ، فلم يخلف العرب (والمسلمون) على الحجارة ما خلفته الأمم الأخرى .

فألوان الحضارة العربية لم تنحتها من حجارة ، ولم تسجلها الصخور ، بل سجلتها الأعمال الحية .

ويبدو هذا المعنى واضحا من وراء الوعى ، فى قول عمر بن عبد العزيز لرجل كتب يستأذنه فى بناء سور المدينة حين قال :

« حصن مدينتك بالعدل » .

وكم من سور يزوره السائحون وهو مبنى على

أساس من الظلم والجور ، ويمتد أثر هذا المفهوم الى الفن الإسلامى كله .

يقول الدكتور العجيلى : إن فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ بينما يتميز بالجمال والدقة وخفة الظل ، فهو لم يقصد به أن يطاول الدهر وإنما أريد آن يكون متعة للعين والروح .

●●●

ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات فى طابع الفن والبطولة ، ويصل هذا المعنى الى غايته بالقول بأن الذوق الإسلامى العربى لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة، لأن الروح الإسلامية لا تميل اليه، ولأنه لا يتفق مع فطرتها التى تجد مجالها الفنى فى « الكلمة » وليس هذا مفهوم الذوق العربى وحده، ولكنه فى الحق إنما يمثل مفهوم الفكر الإسلامى الأصيل ، المستمد من جوهر الإسلام والقرآن أصلا، وربما أخذ به العرب وعمقوه ، وإن تخلف فى أجزاء أخرى نتيجة غلبة الفلسفات الوثنية السابقة للإسلام.

والفن الذى تعلق به العرب وأخلصوا له قبل نزول القرآن هو الشعر ، لأنه أرضى رغبتهم فى الحيوية والاستنارة ، وجاءت الموسيقى امتدادا للشعر واتصالا به ، والفارق بينهما هو الفارق بين السذاجة والترف.

وجملة الرأى أن الطابع العربى الإسلامى فى الفن والحضارة هو طابع الحيوية والروح العلمية ملخصا فى كلمات قليلة :

« أعمال خالدة لآثار خالدة »

●●●

ولقد حرر الإسلام مفهوم البطولة من الأسطورة ، كما حرره من وثنية التكريم ، وذلك أن الإسلام قد ضرب قاعدة من أعظم قواعد تقدير البطولة فى العصور السالفة ، تلك هى فكرة « عبادة البطل » أو تأليهه أو وضعه فى مصاف القدرة الخارقة، فالبطل فى الإسلام ليس مقدسا وليس أسطوريا .

والمثل الأعلى فى البطولة الإسلامية هو النبى ﷺ، المؤيد بالوحى والذى لا ينطق عن الهوى ، ومع ذلك

فقد أكد القرآن فى أكثر من موضع أن النبى بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويتوفاه الله ، وأن مفهوم الخلود الجاهلى والوثنى لا ينطبق عليه ، وإنما الخلود خلود الأعمال والبطولة بطولة الأعمال .

* * *

ولقد رفض الإسلام تأليه النبى تحريا لمفهوم التوحيد والإيمان بالله الواحد الذى له وحده حق العبودية والقداسة والاستعلاء الذى لا يصل اليه البشر .

ومن هنا : فقد حارب الإسلام مفهوم «عبادة الفرد» أو الغلو فى تكريمه أو الإسراف فى تقدير ذاته ، وجعل البطولة كلها والتكريم كله للعمل وحده .

وبذلك حرر النفس الإنسانية من عبادة الفرد ، ومن الوثنية التى صنعت عشرات الآلهة وأنصاف الآلهة فى الأمم الوثنية ، وخلقت عبادة الأصنام والأوثان .

* * *

وأنكر الإسلام المبالغات التى كانت تضفى على البطل من ميزات خارقة أو صفات عالية تفوق قدرات الإنسان الطبيعية ، وكلها تدخل فى نطاق الأساطير .

وقرر الإسلام أن هذه النظرة الى الإنسان البطل تجافى الحقيقة ، فإنه من المستحيل على الفرد مهما أوتى من قدرة وفطنة وذكاء أن يكون له نفوذ الإله القادر الذى له وحده مقاليد الأمور ، ولقد ارتبطت عبادة الفرد فى بعض الأمم بالعبودية التى كانت تتيح للملوك والسادة والأمراء حق التصرف بالاستغلال والموت والبيع للعبيد ، الذين تحت إمرته .

هذه العبودية التى انتشرت فى العالم القديم (بابل وأشور) وسمرقند ومصر والهند والصين ، ثم بلغ هذا النظام العبودى أوجه عند الإغريق فى القرن السادس ، ووصل فى روما الى أقصى صورة قبيل ظهور الديانة المسيحية .

وقد دافع فلاسفة اليونان الكبار عن هذه العبودية وأقرها أكبرهما (أرسطو وأفلاطون) ودافعا عنها دفاعا حارا .

« ١٠ »

وقد بلغ عدد العبيد فى روما عشرون مليونا مقابل ٢١٤ ألف مواطن حر ، وكان فى أثينا أربعمائة ألف عبد ، بينما يبلغ سكانها الأحرار ٢١ ألف مواطن ، وحيث قامت الحضارة الرومانية بمعابدها وأبنيتها الشاهقة على أساس العبودية وكذلك الأمر فى الزراعة، حتى توفى الامبراطور أوغسطس عن أربعة آلاف عبد .

وقد حطم الإسلام العبودية ودعا الى الأخوة والمساواة ، وحرر معها مفهوم البطولة الذى كان مرتبطا بالمفهوم العبودى .

ولقد أعطى الفكر الغربى لمفهوم البطولة صورا مختلفة منها : العبقرى والعظيم والنابغة والقديس والبطل ، وأجرى ماكس شيلر الفيلسوف الألمانى مقارنات واسعة بين هذه المفاهيم .

وجرت مناقشات واسعة حول التاريخ وصانعيه : واختلفت نظرية الغربيين الليبراليين أصحاب مفهوم الديمقراطية والفردية عن مفهوم الماركسيين الاجتماعيين أصحاب مفهوم التفسير المادى للتاريخ ، وانقسم الرأى حول مفهوم توماس كارليل الذى أورده

فى كتابه : (الأبطال وعبادة الأبطال) وبين مفهوم نيتشه الذى تحدث عن الإنسان الأعلى ، ومنه صدر مفهوم التفسير المادى .

أما عباد البطولة فيقولون : إن التاريخ فى جوهره عبارة عن سير العظماء ، وأن التاريخ من صنع العباقرة ، وأن العظيم هو البطل الذى غير مجرى التاريخ .

ويرى أصحاب نظرية التطور : أن التاريخ سلسلة من الحوادث ، وأن العظماء نماذج للبيئة التى يعيشون فيها ، وأن الظروف هى التى تخلقهم ، وأبرز رجال النظرية المادية فى البطولة (هربرت سبنسر) الذى يقول : إن الإنسان خاضع لمحيطه ويتطور بتطوره ، وأن التطور المادى هو أساس المجتمع ، وكلا الرأيين مسرف فى اتجاهه مغال فى تقديره ، للبطولة أو ضدها ، ومفهوم الإسلام للبطولة أقرب الى الصدق والاعتدال .

فالإسلام لا يعطى البطل كل هذا التقدير ، ولا ينكر أثره فى المجتمع ، ولكنه يرى أنه من صنع المجتمع

وثمرة له ، ثم هو مغير للمجتمع ، وأن البطولة ترتبط بإنكار الذات وبالقيمة الأخلاقية .

وقد حاول الأستاذ (ارمان) أن يتحدث عن بطولة النبى محمد ﷺ فى هذا المجـــال فقال : لقد أخفقت محاولاتى الكثيرة لإيجاد مؤرخ واحد يستطيع البرهنة على أن النبى محمدا ﷺ كان وليد الحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تســـود الجزيرة العربية فى القرن السابع بعد الميلاد ، ولم أجـــد بين المؤرخين أيضا من يقدر أن يقول : لو لم يبعث النبى محمد ﷺ لكان من الطبيعى أن يستعاض عنه بشخص يقوم بنفس المهمة التى اضطلع بها .

* * *

فقد قام محمد ﷺ بأعمال خارقة حين جعل أبناء الصحراء أمة تمكنت من المحافظة على المدينة وقدمتها الى نصف أرجاء المعمورة ا.هـ

وقد رسم القرآن الكريم صـــورة للبطولة تحـــدد مفهومها : فكل الأبطال الذين عرضهم القرآن : أبطال

مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون بل يقفون دائما موقف الصمود والمقاومة مرفوعى الرؤوس •

فقد كانت رسالتهم دائما هى رسالة التقدم والبناء ومن هنا فقد عجزت قوى العدوان عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم ، وكانت المقاومة عندهم إيمانا من أعماق النفس وسلاحا فى اليد يعملان معا فى اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة •

لقد كان البطل دوما فى مفهوم الإسلام : «استجابة» لحاجة المجتمع والأمة ، وفق نواميس تكوينها التى قامت عليها ، ينبعث فى وقت الأزمة من أعماقها ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه الى مرحلة جديدة من مراحل العمل فوق موجة من موجات التقدم •

ولقد كان الرسول ﷺ - وسيظل - النموذج الإسلامى الأعلى للبطل ، وكانت صورته دائما وتجربته وعلمه موضع القدوة والأسوة طوال فترات التاريخ الإسلامى ومراحله ، وما يزال حتى اليوم

موضع القدوة عند كل بطل وقائد ، فهو الذى كان إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، وهو الذى وجده الناس عائدا من مصدر الصوت الذى أفزع المدينة على فرس عـــــرى عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذى وقف فى (حنين) كالطود بعد أن تفرق أنصاره على إثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادى الناس (إلىّ إلىّ ٠٠) وهو الذى كان يفرق دائما بين موقفه فى الغار ولا قوة معه يلتمس نصر الله ، وموقفه فى بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل أن يكله الله إليها ، فهو يلتمس من الله نصرا مجردا من الأسباب ٠

وهو البطل الذى لم تذهله الأحداث ، والقائد الذى لم يهزم قط ، وقد كون بمكة خلال ثلاثة عشر عاما جيلا من القادة المغاوير ، رباهم على البطولة والإيمـــان والتضحية فكتبوا صفحاتبارعة من المجد ، وظل هذا الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتوالية ٠

ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسـول أبرز مفاهيم البطولة ، وسر عظمة صلاح الدين ونور الدين التماسهما من روح النبى ومفاهيمه وأسلوبه وهو نفسه مصدر النصر الذى حققاه ٠

- ١٠ -

اصـــــطلاح المأســـــاة

ما تزال هناك فوارق عميقة حول الشخصية والقدر ، الفكر الغربى الذى يستمد مقوماته من وثنية اليونان والرومان ، فى ضوء هــذا المفهوم تقوم المأساة التى تفرض الصراع بين الانسان والاله والتى تنتهى دائمــا بهزيمــة الانسان ، ولا شك أن هذا مفهــوم وافــد ، ومناقض تماما لمفهوم الاسلام فى البطولة وفى علاقة الفرد بخالقه الرحيم .

اصطلاح المأساة (١)

يحاول الفكر الغربى أن يفرض على المسرح والقصة والبناء الفنى للأبطال مفهوما يقوم على أساس انتهاء القصة أو البطولة بمأساة فاجعة ، ويقوم هذا التقدير الفنى والنهاية الحتمية لكل قصة بطولة على أساس مفهوم وثنى إغريقى قديم مصدره ما حاولت الآداب اليونانية من افتراضه من صراع بين الآلهة وبين الإنسان ، وهو افتراض يستمد وجوده من تاريخ طويل يقوم على أساس الأساطير وتقديس الأبطال وعبادة الفرد ، وتحويل بعض الأبطال القدامى الى آلهة وأنصاف آلهة ، وما يتصل بذلك من توزيع الاختصاصات بين الآلهة ، فمنها آلهة الحصاد ، وآلهة الجمال ، وآلهة الخمر ، وغير ذلك مما تزخر به الأساطير اليونانية التى اتخذها الأدب الغربى الحديث أساسا له ومصدرا .

* * *

---

(١) التراجيديا تعبير فنى غربى عن ما يسمى فى القصة «المأساة» وهى عكس ملهاة .

وقد أضيف الى ذلك محاولة تصوير حياة بعض الأنبياء على هذا النحو من وقوع المأساة والقتل وهو ما يسمى نهاية الصراع بين القدر والإنسان ، والمفترض أن يسقط الإنسان فى هوة المأساة والهزيمة ٠

وقد جرت محاولات فى الأدب العربى الحديث لإدخال إخضاع البطولات الإسلامية والشخصيات العربية لهذا المفهوم ، وجملة ما يذهبون اليه يتعارض مع مفهوم الإسلام والثقافة العربية ، ويتعارض مع طبيعة الفكر الإسلامى والمزاج النفسى العربى الذى كونه القرآن ، وقام على أساس الإيمان بالله وعقيدة « القدر » بوصفها قوة دافعة ، أما المفهوم الغربى الذى يقوم على أساس عجز الإنسان أمام القدر ، بمعنى أن الإنسان دائما فى موقف المغلوب وأن الإنسانية واقعة تحت ضغط قدر لا يرحم ٠

* * *

هذا المفهوم لا يعرفه العرب والمسلمون ، واستمدادا من مفاهيمهم وقيمهم المستمدة من الدين الإلهى

والإسلام لا يقر هذا ولا يعترف به ، ومن المستحيل أن رابعة العدوية أو السيد البدوى كانا يؤمنان بهــذه المفاهيم التى حاول بعض كتاب القصــة إخضاعهــا لنظرية غربية وثنية : نظرية الصراع بـين الإنســان والقدر ، ذلك لأن الإسلام حرر الروح الإنسانيــة من هذه المفاهيم الوثنية الجاهلية ، بل لقد دحض الإسلام نظرية « الخطيئة » التى حاولت الأساطير أن تربطها ببعض الأديان أو بعض الأنبياء ٠

ذلك لأن خطيئة آدم إنما كانت خطيئة ذاتية تتعلق به وحده ، وقد أشار القرآن الى هذا المعنى فى إفاضة ووضوح ، وقرر أن آدم تلقى من ربه كلمــات فتــاب عليه ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا صلة مطلقا بين خطيئة آدم وبين الناس ، وأن الفكر الإســلامى لا يؤمن بانسحاق الإنسان ، بل بكرامته وسيادته تحت حكم الله ، ولا يقر مفهوم الصراع الذى ينتهى بضياع البطل ٠

وقد واجه كثير من الباحثين هذه النظريات الوافدة التى يلتقى فيها مفهوم البطل بين اليونانية واليهودية والمسيحية الغربية ، وهو فكر مستمد مــن نظــرية

الخطيئة الأصلية ، وقد أشار الى هذا المعنى الدكتور شكرى عياد فى معرض مناقشة بعض المسرحيات التى اتخذت هذا المفهوم الوافد فقال : « نرى أن هنـاك أسبابا أساسية فى نظرتنا الى الحياة ، تجعل شخصية البطل التراجيدى كما يعرفها الأدب التمثيلى الغربى بعيدة عن إحساسنا الأصيل ، بحيث أننا قـد نستمتع بمشاهدتها ولكن لا نستطيع أن نخلقها وقراءتها فى أدبنا خلقا » .

● ● ●

ومفهوم التفكير « عن الذنب » موجود فى تراثنـا ، ولكنا نلاحظ أن فعل التفكير لم يستعمل فى القرآن إلا مستندا الى الله :

« ويكفر عنكم سيئاتكم » .

ونفهم من ذلك أن الله يمحو ذنب الإنسان التائب، وفى تراثنا كلمة عامة هى كلمة « العصمة » والفقهاء يقرون عصمة الأنبياء من الذنوب فى نفس الوقت الذى يجمعون فيه على أنهم بشر ، وكـل إنسان يجب أن

يلجأ الى الله : « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (١) » .

والنتيجة هى أننا فى نظرتنا الى الحياة يمكننا أن نفهم الضعف والجريمة ، ولكننا نفهم أيضا أن الإنسان يجاهد ضعفه أو ميله الى الجريمة جهادا مستمرا ، وأن هناك قوة عليا تسنده فى ذلك ، ونحن نشترك مع البشر جميعا فى اعتقادنا أن العقاب الذى ينزل بالخاطىء هو كفارة أو تكفير عن ذنبه ، إلا أننا نعطى قيمة كبيرة لجهاد النفس ، ونرى أن القوة العليا تكون دائما قريبة منا فى هذا الجهاد .

وهذا التصور للذنب أو الجريمة من الناحية الروحية مختلف الى درجة كبيرة عن التصور الغربى الذى لا يزال مرتبطا بتراث اليونان كما نراه فى تراجيدياتهم .

فالتراجيديات اليونانية حين تصور لنا سقطة البطل تفترض أن هناك صراعا بينه وبين القدر ، وبين نظام

---

(١) سورة آل عمران : ١٠١

الكون الذى لا يفهمه أو لا يسلم به دون فهم إلا حين يرى هلاكه .

ولهذا تكون سقطة البطل فى التراجيديات اليونانية شيئا نابعا من إنسانيته نفسها ، راجعا الى استعماله لعقله وقوته كشأن (أوديب) الذى حاول بكل ما فى الطاقة الإنسانية أن يتجنب الوقوع فى المحظور ، ولكن قضاء الآلهة (اليونانية) نفذ فيه آخر الأمر ، وكان مالا بد أن يكون ، ذلك هو البطل اليونانى .

أما البطل المسلم فهو أكثر وعيا بالنسبة الى دوافعه وأعظم إيمانا بالقدر ، ولا أظن أن ذلك راجع الى أننا لم نتجاوز عصر الملاحم بعد ، ففى كل أطوار حضارتنا بارتفاعاتها وانخفاضاتها لم نتصور الإنسان قط على أنه محكوم عليه بالخطأ ، وإنم تصورناه مركزا لصراع مستمر بين الخير والشر . وهو ميدانه والقابض على السيف فيه ، ولم نتصور صراعه مع القوى الخارجية إلا نتيجة لهذا الصراع الداخلى وتحقيقا له (١) .

---

(١) عن بحث له ــ مجلة الثقافة ١٩٦١

ولا شك أن القصة التراجيدية أو المسرحية وفق المفهوم الغربى تصادم النفس العربية الإسلامية من ناحيتين ٠

الأول : من ناحية الصناعة والتلفيق ٠ فالنفس العربية الإسلامية تؤمن بالواقع ، والواقع يؤكد أن عشرات من الأبطال لم تنته حياتهم بالمأساة ، إذ أنهم لم يصادموا الأقدار ، بل كانوا مثالا عاليا للرحمة والعطاء ، وقد استطاعوا أن يقدموا لأمتهم إضافات جليلة وحققوا أعمالا باهرة ٠

الثانى : هو قسر القصة على أن تنتهى بالهزيمة : بشرط المأساة (وهى عمل فنى) وليس صورة واقعة من الحياة أن ينهزم فيها الحق دون الباطل ، وأن يهوى الإنسان الطيب وينتصر الشرير ، على حد عبارة مؤلف كتاب المصطلحات الأجنبية ٠

والواقع أن القصة فى مفهوم الأدب العربى وفى منطلق الحياة نفسها ووفق مقاييس الحق والعدل الإلهى لابد تنتهى بانتصار الحق وسقوط الباطل والشرير ، وأن هذا المفهوم الذى فرض على المأساة والمسرح الغربى إنما يستمد وجوده من بروتوكولات

صهيون التى ترمى الى خلق جو دائم من التدمير ، وإعلاء قيم الشر والباطل ، وانتصارهما فى وجه الحق والخير ٠

* * *

ولا شك أن خضوع الأدب الغربى الحديث لهذا المفهوم يعد مجافاة حقيقية للواقع وللصدق، ومعارضة أكيدة للنفس الإنسانية فى نظرتها وأصالتها التى تلتمس دائما الخير والضياء والحق ٠

وأن محاولة دفع المفاهيم الوثنية الإغريقية الى القصة والمسرح وإعلاء طابع الطقوس والموسيقى الجنائزية والصيحات الممدودة والاستعراضات الصاخبة كل هذا مهما بدا فى ظاهره مثيرا فإن النفس الإسلامية العربية تصد عنه ولا يجد لديها تقبلا ٠

ولا شك أن المزاج النفسى العربى بطبيعة تكوينه فى ظلال المسجد وهتاف الله أكبر ، والأذان قد شكل لنفسه جرسا خاصا يستريح له ويجد فى سماعه طمأنينته المتصلة بالله خالق الكون كله ٠

- ١١ -

النبـــوة والعبقـــرية

هناك فوارق دقيقة بين المصطلحات ، تحاول ان تنفذ منها دعوة التغريب لافســاد المفــاهيم الدقيقة فى الفكر الاسلامى ، من ابرز هذه الفوارق ما بين النبوة والعبقرية ، فقد جـــرت مجادلات لتصوير الأنبياء بالبطولة او الزعامة او العبقرية، وهى محاولات تحاول أن تخرج هذه الشخصيات التى تستمد وحيها من السماء ، تحاول اخراجها عن حقيقتها وجوهرها .

النبــوة والعبقــرية

خطران واجها الرسول محمد - ﷺ - ، ويواجهان سيرة كل نبى مرسل مؤيد بالوحى ، هذان الخطـران هما : التفسير المـادى للتاريـخ ، والتفسـير النفسى للتاريخ ، وكلاهما يستمد مصادره من الفلسفة المادية التى تنكر عالم الغيب كله بما فيه من نبوءة ووحى ورسالات سماوية .

ومن هنا فإن الاعتماد على كلا المنهجين أو أحدهما إنما يخرج سيرة النبى من أعظم مصادرها ، وينكـر أبرز مفاهيمها وأقوى عوامل الإعجاز فيها ، وبذلك لا ينكشف على وجه الحقيقة جانب القوة غير الطبيعية التى ما زالت موضع دهشة بعض الباحثين والمستشرقين والتى حققت انتشار الإسلام وتوسعه فى أقل من مائة عـام .

وبدون هذه الجوانب التى تتخطاها الفلسفة المادية ومذاهب التفسير المادى والتفسير النفسى للتـاريخ ، لا يمكن الكشف عنها أو إبرازها .

وخطأ آخر هو : مساواة شخصية النبى المؤيد بالوحى بشخصيات الصحابة ، وهم ليسوا على درجة واحدة مع النبى ولن يكونوا ، فهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ، وهم رجال يخطئون ويصيبون، ومن هنا فمن غير المنطق الصحيح إطلاق عبارة العبقرية أو البطولة أو العظمة الإنسانية على النبى وعلى الصحابة بدرجة متساوية ، أو أن تدرس حياتهم جميعا فى نطاق واحد .

ومن هنا تختلف النبوة عن العبقرية ، وتختلف النبوة عن البطولة والعظمة الإنسانية فى جانب جوهرى ضخم هو جانب « الوحى » ، وفى تقرير الباحثين أن ما بين النبوة والعبقرية واسع وعميق ، ذلك أن النبوة تقوم على الوحى والإخبار عن الله تعالى ، أما العبقرية فهى فى تقدير الباحثين نوع من الإلهام والذكاء والبراعة ، وربما وصف عمر بالعبقرية على حد قول رسول الله ﷺ « وقد كان محدثون فإن يكن من أمتى أحد فإنه عمر بن الخطاب » ، أما الأنبياء فلا يوصفون بذلك .

والمحدثون هم الملهمون فى إصابة الحق والصواب فى

حل المعضلات ، ومن الخطأ أن يوصف النبى بالعبقرية أو بالزعامة السياسية ، أو بأنه رسول الحرية أو بالبطولة ، فإن هذا كله إنما يعنى التماس تفسير مادى دنيوى لأعمال الرسول ، وذلك يجردها من طابعها الجامع بين شخصية النبى وقدراته الفائقة كبشر ، وبين تأمين الوحى له وتوجيهه كرسول ونبى مرسل من عند الله :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ (١) » .

ولقد كتب كثير من المستشرقين وكتاب الغرب عن النبى محمد ﷺ على أنه بشر عظيم ، ومصلح كبير ، وبطل عبقرى ، وتابعهم بعض كتابنا فى هذا الاتجاه دون أن يستطيعوا الالتفات الى الفوارق الضخمة بين النبوة والبطولة .

* * *

ومصدر الخطأ فى الكتابات العربية أن أصحابها التمسوا مناهج الغرب فى دراسة التراجم والشخصيات

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

والأعلام ، وأنهم أقاموا دراساتهم عن الرسـول وفق أسلوب غربى وضعه الباحثون فى الغـرب لدراسـة أعلامهم ، وأبرز هذه المناهج هى أسلوب لومبروزوا ، وأسلوب أميل لدوفيج ، وكلاهما يصدران عن الفلسفة المادية وينكران النبوات ، ولعل أبرز مفهوم لعظمة نبوة النبى ﷺ والفـارق بينهما وبين البطـولات والعبقريات إنما يمثل فى حوار أبى سفيان والعباس ابن عبد المطلب حين وقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين وهو يشق طريقه الى مكة فقال :

يا عباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

وأجاب العباس فى سرعة وفهم عميق :

إنها النبوة يا أبا سفيان .

ولا شك أن للإسلام منهجه الصريح الواضح المستقل فى دراسة الأعلام وفى فهم البطولات ، وهو فهم يقوم على أساس من أصوله الواضحة الصريحة ، والتفرقة الواضحة بين أوليائه وخصومه .

* * *

فلا يستطيع الباحث المسلم أن يسلك فى منهج واحد شخصيات مختلفة لمجرد أن لها أسماء لامعة ، دون أن يكون الإسلام هو الفيصل فى تقدير هذه الشخصيات وبطولاتها

وأخطر المناهج فى تفسير البطولات الإسلامية والنبوة هو المنهج الفلسفى الذى يستمد أصوله من الفلسفة المادية ، ذلك أن للقرآن منهجا واضح الدعائم والدلائل ، يمكن أن يطبق على كل ما يتصل به من تاريخ أو بطولات ، أما منهج الفلسفة فى تفسير الإسلام وبطولاته فهو منهج غير مؤهل ٠

ذلك لأنه يعمل فى غير ميدانه ، ويقايس الأمور بأقيسة عاجزة عن أن تصل الى أبعاد القضايا التى يتصدى لها ٠

ذلك لأنه منهج يقوم على المعرفة المادية الحسية العقلية التجريبية ، وهى ليست فى منهج المعرفة الإسلامى إلا شق واحد ، أسلوب متكامل يرتبط فيه العقل والقلب ، والحس والوحى ، وعالم الغيب وعالم الشهادة ، أما خطأ مدرسة لومبروزو فى تقييم

البطولات والشخصيات فإنها ترد عظمة العظماء الى ملكاتهم الممتازة وحدها ، فالملكات الممتازة فى الأفراد هى مفتاح تفسير هذه البطولات .

وهذا المنهج الذى اعتمد عليه بعض كتاب التراجم والعبقريات لا يقل عن التفسير المادى للبطولة فسادا واضطرابا .

وهو عاجز حقا عن أن يفسر بطولة أبى بكر وعمر وخالد وغيرهم ، ذلك أن العقيدة الإسلامية قد حولت هـذه الشخصيات وأجرت تغييراً كـبيرا فى مفاهيمهم وتصورهم للأمور وتقديرهم للقيم ، وقد استطاعت أن تخلق هذه الشخصيات خلقا آخر ، فى ضوء التوحيد والحق والعدل والإيمان والأخلاق ، وقد أخرجتها عن جلدها القديم فى سلوكها وتفكيرها ومزاجهـا النفسى والاجتماعى .

ويظهر ذلك جلياً فى ذلك التحول الخطير الـــذى طرأ على عمر وخالد وغيرهم ، فقد تعارضت مقاييس الإسلام مـع مفاهيمهـم القديمة تعارضا تاما فى كثير من الأحيان .

فاختلاف الولد مع أبيه والأم مع ابنها ، بل قتل الأخ بعد إسلامه أخاه أو أباه الذى كان على الشرك ، وطلب المسلم من النبى عندما علم أن الإسلام قد أهدر دم أبيه أن يسمح له بقتل أبيه ، ويظهر ذلك التحول واضحاً فى موقف الخنساء التى كانت تثير الدنيا لموت أخيها صخر فى الجاهلية ، فإذا بها بعد الإسلام تقدم أربعة هم أعز ابنائها وفلذة كبدها الى الشهادة فرحة باستشهادهم راضية نفسها بنصر المسلمين .

* * *

ومن الحق أن التكوين الموروث وطبائع النفس وملكاتها عنصر هام من عناصر الشخصية ، ولكنه لا يستطيع وحده فى مفهوم الإسلام وفى بيئته أن يفسر الشخصية ، أو يلقى الضوء الحقيقى على تصرفاتها ، وأن الاعتماد على الملكات النفسية وحدها يحجب جانباً هاماً هو دور العقائد والتربية ، وينكر أثرها فى توجيه الأشخاص ، ولا شك أن التربية الإسلامية التى أقام الرسول - ﷺ - أصحابه وأتباعه عليها

ذات أثر كبير فى التشكيل النفسى والعقلى الجديد لهذه النماذج من أصحابه الـذين كتبوا صفحة جـديدة فى مفهوم البطولة يختلف فى مضمونها وتفسيرهـا عـن البطولات الأخرى ، والتى تعجز المناهج الغربيـة فى تفسير البطولة عن استيعابها .

أما مذهب (أميل لدوفيج) فهو مذهب بعيد كل البعد عن الأصالة والفطرة ، وهو واحـد من هـذه المذاهب التى أقامتها الصهيونية العالمية لتحـريف البطولات وتدميرها ، وهو حلقة فى تلك الأيدلوجية الطاغية التى عمدت الى تعرية البطولات وتفريغها من العظمة والكرامة .

ويعلن (أميل لدوفيج) فى وضوح أنه يضيف مـن الخيال ، وأنه يتكىء على جوانب الحب والغرام، وأنه يعول على سحن الوجوه وسمات الأجسـام وعـلى الفراسة ، ويقول : (تستطيع (١) أن تكتب قصـة تاريخية عن الجندى ، وتسرد الى جـانب حـروبه وفتوحه حادثة من حوادث الغرام والعشق ، وعنـدما

---

(١) محمد عشرى الصديق فى محادثة خاصة معه ــ يناير ١٩٣٠

أبدأ سيرة أحد المشاهير (جيتى أو نابليون) مثــلا ، فإنى لا أعنى بفلسفة الأول أو انتصارات الثــانى ، بل أفحص صورة كل منهما وأقرأ خطاباته ، وأعرف حوادث عشقه أو أحاديث المرأة التى كان يحبها ، فإن فى فسيفساء غرائزه وأهوائه الرفيعة والوضيعة التفسير الصحيح لشخصيته) .

ويقــول : حاولت أن أثبت أن الطبــاع البشريــة واحدة أى أن طباع الرجل العظيم وطباع راعى الغنم واحدة متشابهة .

ويقول : أنا أثبت أن العظماء ان هم إلا مثلنا فى أكثر الأشياء وليسوا خلائق أرقى خيرا كما يبدو لبعض الناس .

ومما فهمه محدثه : أن يولى اهتمامه بأماكن الضعف والحقارة فى طباع العظماء وأعمالهم ، وأنه يحاول أن يقرر أن عظماء الرجال ليسوا إلا بشراً فى كل شىء ، وأن الفروق التى تفصل بينهم وبين غيرهم من الأوساط العاديين هى فروق لا تمس الجوهر .

ولا شك أن مفهوم لودفيج مستمد من مفهومــين

واضحين : هما التفسير المادى للتاريخ ، ونظرية فرويد فى اعلاء الجنس والغرائز البشرية ، وهو امتداد لهما فى محاولة لتدمير كل الأعلام الذين وضعهم التاريخ الأوربى موضع التقدير والإعزاز ، وأنهمعارضة كاملة لمفاهيم ومذاهب تقدير البطولة والعظمة الإنسانية .

وبعد : فإن كلا المذهبين (مذهب لمبروز ومذهب لدوفيج) مختلف كل الاختلاف عن المفهوم الإسلامى للتاريخ والبطولة ، هذا المفهوم الذى يعلى شأن الأعمال ، والذى يفرق بين النبوة والعبقرية .

وقد عرض الدكتور محمد أحمد الغمراوى لهذه التفرقة فقال : إن محاولة وصف محمد - ﷺ - بأنه عبقرى من العباقرة هى محاولة توحى بأنه لا نبى ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الأديان المنزلة ، والناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد وعبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لايمكن أن يسلم من إيحاء خفى الى نفسه أن محمدا وأبا بكر وعمر من قبيل واحد ، عبقرى من عباقرة ، وإن يكن أكبرهم جميعا كالذى سمى النبى - ﷺ - (بطل الأبطال) فأوهم أنه واحد

من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور ، بدلا من صنف اختتم به - ﷺ - ، صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله .

« فالنبى والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحى ومن كتاب، ولا كذلك العبقرى ولا البطل فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير ، وكم فى الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى، وكلهم يدين له - ﷺ - بأنه رسول الله الى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده ، وأنه خاتم النبيين » ا . هـ .

●●●

أما محاولة تصوير النبى المرسل المؤيد بالوحى بأنه (رسول الحرية) فإنه يستهدف انكار الوحى والنبوة والرسالة ، ووضع النبى فى صورة بطل ظهر فى أمة فاستطاع أن يقودها ويجدد حياتها ويصلح مجتمعها .

وتنطلق هذه النظرية من مفهوم النظرية المادية، فهى تتجاهل النبوة والوحى ، وتقوم على أساس المنهج الغربى فى فهم البطولة ، ويحاول أصحاب هذا

المنهج تجاهل ما أيد الله به رسوله من أمور غير معتادة ويجرون مجرى المستشرقين فى الادعاء الباطل بأنه - ﷺ - تلقى من بشر أو علمه بشر ، وأنه أخذ من الرهبان والأحبار ، أو أنه كان يعد نفسه قبل البعثة لقيادة أمته ، أو أن الوحى كان مناما وأن الإسراء كان حلماً من الأحلام .

والواقع أن هذه الشبهات جميعا إنما تصيدها خصوم الإسلام من الأساطير والإسرائيليات التى جرت محاولات ضخمة لإضافتها ، والتى قامت المناهج العلمية فى تحقيق الحديث والسنة على تحريرها منها .

ولقد تأثر كثير من الكتاب الذين اتصلوا بالفكر الغربى بمفاهيم الماسونية ، فلما عادوا لينظروا فى سيرة الرسول لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من الطابع « المادى » أو « الوثنى » أو من مفهوم الحرية الغربى ، وغاب عنهم الفارق العميق بين النبوة من ناحية وبين البطولة أو العبقرية من ناحية أخرى، مما دفعهم الى تفسير البطولات الإسلامية بمذاهب الغرب، ورد عظمتهم الى الملكات الموروثة، بينما خلق الإسلام

هؤلاء خلقا جديدا ، ذلك أن هناك فوارق عجيبة بين حياة هؤلاء الأعلام وتكوينهم النفسى والاجتماعى قبل التقائهم بالنبى ، وبعد أن صاغهم صياغة جديدة وفق مفهوم القرآن ـ وعلى هدى التوحيد الخالص وفى ضوء الأسوة الحسنة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (١) » .

إن الذى صاغ هذه النفوس هو مفهوم (العقيدة الإسلامية) وليس مفهوم الملكات الموروثة أو مفهوم البطولة السابق للإسلام وهو مفهوم كان يقوم على الاستعلاء والفخر .

ولا شك أن العقيدة قادرة على أن تغير النفوس وتصوغها من جديد ، وفى هذا ما يعارض رأى بعض القائلين بأن المجرم انما هو مجرم نتيجة غرائزه وأعصابه وملكاته ، ولذلك فهو لا يعاقب ـ هذا المفهوم الذى يعارضه الإسلام معارضة واضحة ، ويكشف فى سيرة هؤلاء الأعلام كيف تحولت شخصياتهم ونفسياتهم بعد الإيمان بالله وأصبحت خلقا جديدا .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١

أما بالنسبة للأساطير فقد جرت محاولات جريئة فى العصر الحديث لإعادت إدخال الأساطير الى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بعد أن كانت مهمة المصلحين والعلماء على طول التاريخ تحرير الفكر الإسلامى منها وإقصائها عنــه .

وقد حاول بعض الكتاب تجديد هذه الأســـــاطير وبعثها وإضافتها الى السيرة أو وضعها على هامشها، وذلك بعد أن اندثر هذا اللون من الأدب ونقيت السيرة النبوية منها، كما عمل الكثيرون على الكشف عن هذه الإسرائيليات فى تفاسير القرآن المختلفة .

وقد كان الهدف من هذه الإسرائيليات فى (إقامة « مثيولوجية (١) » إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ، وقد كانت هــذه غاية الأســـاطير التى وضعت عن الأديان الأخـــرى واستمساك رجال الدين فى بعض العصـــور بهـــذه

---

(١) المثيولوجيا : هو علم الأساطير أو ما يسمى بالأحداث المارقة والخرافات ، وما غير التاريخ الصحيح .

الأساطير ورميهم من لا يؤمنون بها بالمروق والإلحاد هو الذى يسر رغبة الكثيرين عن هذه العقائد التى يفرضها العقل ، وإن اتهموا فى إيمانهم ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور، وارتفعت صيحة الشيخ محمد عبده فى العصر الأخير لتطهير العقائد من هذه الأوهام (١) .

والواقع أن الإسلام لم يعرف الأسطورة وكذلك الأدب العربى ، ولقد ساق المستشرقون والمبشرون حملة ضخمة على الفكر الإسلامى لخلوه من **« الأسطورة » التى تعد فى نظرهم فنا عاليا من فنون** الأمم الراقية ، ولقد كان الفكر الإسلامى والأدب العربى واضحا صريحا قادرا على الفهم والتعبير دونما حاجة الى الضلال والرموز ، ولذلك فلم يكن فى حاجة الى الأساطير أو الى الرمزيات ذات الظلال والأضواء.

●●●

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : راجع النص بالكامل فى كتابنا « المعارك الأدبية » .

- ١٢ -

الفنـــون الجمـــيلة

ما هو مفهوم الاسلام للفن ، وما هو الفارق العميق بين هذا المفهوم وبين مفهوم الفــكر الغربى . ان الاسلام يقر الفــن ويعلى من قدره ويسمو به فوق كل زيف ولا يقر الكشف او الاباحة ويربط قيم الفن بالأخلاق .

الفنـــون الجميـــلة

أبرز مفاهيم الإسلام هو التوازن بين الروح والمادة وتكاملها ، ومن أبرز مفاهيمه تقـديم الخلقى عـلى الجمالى ، وتقوم المفاهيم جميعها على أساس التوحيد وتدور فى دائرة الحق والعدل والإيمان بالله ، وتتخذ من الأخلاق طابعا واضحا وإطارا شاملا .

فالفنون لا تخرج عن أنها وحدة من الكل المتناسق، وهى عنصر بناء مع العناصر الأخرى ، وترمى كلهـا الى بناء الإنسان الربانى الإيجابى الذى لا يتحطـم بالإسراف فى الترف واللذات ، ولا يجمد بالإسراف فى الزهادة والرهبانية .

وأخلاقية الفن التزام أصيل صادق لا تنفك عنـــه الفنون الجميلة والآداب ، والفكر الإسلامى لا يفصل بين الفنون وبين الأخلاق ، بل يوائم بينها ويجعـــل الأدب والفن أخلاقيا وصادقا فى نفس الوقت ، ذلك أن بناء الإنسان الفكرى والمتصل بالذوق والحس لا ينفصل

عن شخصيته كلها ، ومن هنا فلابد من التكامل بين الروحى والمادى ، وبين الجمالى والخلقى .

ولذلك لا يقر الإسلام مفهوم « الكشف » فى الفنون والآداب ، ولا التصوير القائم على الإباحة ويرتفع عنه ويتسامى .

ذلك أن هذا الاتجاه الى الكشف والإباحة فى الأداء الأدبى والفنى يتعارض مع طبيعة النفس الإنسانية ومزاجها الفطرى ، وذاتيتها القائمة أساسا على الإيمان بالشرف والعرض ، وإعلاء شأن الخلق والعفة ورعاية الأسرة التى تنحرف عن الأصالة وتضطرب بانحرافها عن هذا المنهج .

* * *

وقد صور هذا المعنى الدكتور شاكر مصطفى فى عبارة موحية حين قال :

(القيم فى ثقافتنا فوق الجمال وقبل الجمال، حتى لتكاد الثقافة الإسلامية كلها تكون ثقافة القيم، الإغريق جعلوا حتى الآلهة نوعا من الفن ، والحضارة الغربية

منذ عهد النهضة أطلقت الجسم للعرى وعبدت الجمال على حساب الخير ، أما نحن فنؤمن بالتوازن بين الروحى والمادى) .

(نحن مع ضباب الغيب ومن كثافة المادة على مدى واحد) .

(النرفانا غريبة عنا ، المادة ما ملكت منا الرقاب) .

(أبدا ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود ، ولا محا عالم الغيب عالم الشهادة ، روحيون روحية ايمان ، ماديون ما كانت المادة إنسانية أخلاقية) .

(ثقافتنا متصلة بالماضى العربى متصلة لا مكروه) .

(لدينا معيار للحشمة فى السلوك والعاطفة ونطلب منه أن يكون ضابطا لشهواته سمحا كريما) .

(والإحساس بالزمن لدينا وتر مشدود بين الأزل والأبد) ا هـ .

* * *

ومن هنا نجد التباين الواضح فى مفهوم الفنــــون الجميلة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى الذى يعتمد مذاهب الفلسفة اليونانية فى فصل الفنون والآداب عن الأخلاق ، منذ أعلن أرسطو أن جمال الأدب لا يستند الى الأخلاقية ، وإنما هو معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية .

وليس كذلك الفكـر الإسلامى الـذى يقوم عـلى التكامل بـين الفنـون والآداب والاجتماع والــدين والحضارة .

وقوام مفهوم الإسلام « أخلاقى توحيدى » يتسامى بالغرائز ، ويرتفع بالنفس الإنسانية الى الكمال دون أن يبعد عن الواقع ، وقد عدّ الفن فى نظر الفــكر الإسلامى أداة تجميل الحياة ووسيلة الإسعاد الروحى والنفسى بتحرر الإنسان من أعوانه وغرائزه ودفعـه فى نظرة حرة الى الكون والوجود .

وما تزال النظرية العلمية فى الفنــــون قريبة من مفهوم الإسلام ، وهى تعترف بأن حياة الفن قائمــة على الضوابط ، وأن محاولة تحرير الفن من كل قيــد لا يحقق عنصر الجمال ، وأن الحرية المطلقـة ليست

هى الجمال وأن الضوابط فى الفن هى روح النظام ، أما الحرية فهى منهج القبح ، وأن الفـــن له هدف وتصميم ، وأنه يعتمد على ملكة التنظيم ، ويستمـد وجوده من الواقع والحقيقة ويخدم قيم المجتمعات ، وكل فن يخلو من هذه المفاهيم لا يعد فنا .

ومعنى هذا أن النظرية الجديدة فى الفن والمطروحة بقوة فى مجال الفنون والآداب فى السنوات الأخيرة هى نظرية تعارض الفطرة والذوق الإنسانى بصفة عامـة قبل أن تعارض مفهوم الإسلام نفسه .

ولقد وجهت الى الحركة السريالية وغيرها نقـدات كثيرة ، ووصفت بأنها ليست فنا ، لأنهـا خرجت عن قواعد الفن ، فهى أخلاط من الصـــور وأشتات من الأحاسيس .

* * *

وقد شهد (تولستوى) بأن إعراض « الفـن » عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه الى طلب المنفعة ، وأشار الى أن المتـــع

الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة وقال : إن فقدان اليقين الدينى قد أقفر موضوعات الفـن ، وقصر الاستمتاع بها على طبقة محدودة من طبقـات المجتمع •

وقد دارت مناقشات واسعة فى مجال الفكر الإسلامى والأدب العربى الحديث ، بين النظرية الوافـدة التى تقول بتقدير الفن لجماله فحسب ، وبين النـــظرية الأصيلة التى تقول بأن تقدير الفن يقوم على أساس جماله وأخلاقياته معا •

ولا شك أن نظرية إطلاق الفن من كل القيود هى نتاج من آثار الوثنية الدينية فى صـورها المتعددة ، كذلك هى أثر من آثار الفلسفة الماسونية التى أنشأتها اليهودية العالمية فى عصر التنـوير الأوربى ، والتى تصدر لها رجال الماسونية الكبار ، أمثـــال فولتـير وروســـو وديدرو ومن جـــاء بعدهم ، ثم كشـــفت بروتوكولات صهيون عن الهدف منها فى أكثـــر من موضع ، وخاصة قولهم فى البروتوكول الرابع :

إن لفظ الحرية تجعل المجتمع فى صراع مع جميع

القوى ، بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها ، (جل الله وعلا) .

وإن سيطرة القوى اليهودية والصهيونية العالمية على الفنون ، هو أثر من آثار هذا التوجيه الذى يراد به هدم القيم الإنسانية التى جاءت بها الأديان .

* * *

ولقد أشار الكثير من الباحثين الى (أدب المجون واللذة) الذى أصبح يتهدد الثقافات المختلفة ، والذى أصبح يؤلف جزءا كبيرا من الفنون والآداب المطروحة فى سوق الأدب العربى والفكر الإسلامى .

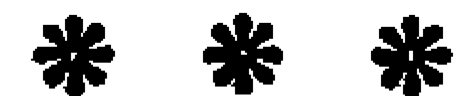
وقد حذر الكثيرون من المفكرين بمدى خطورة هذا اللون على الأخلاق وإفساده للذوق، وكيف يراد (انقاذ ذلك التيار الى صلب التكوين العقلى والنفسى ، ليترك أثره السىء فى صميم الأوضاع السياسية والاجتماعية).

والمعروف أن مصادر هذا الأدب تتمثل فى الفلسفات المادية التى (تبرر انتهاك حرمات العدالة والإنصاف

والفضيلة على أساس الفكرة التى تقول بأن البقــاء للأصلح والحق للقوة) والتى (تنكر الروحانية التى هى عنصر أصيل فى الثقافات الشرقية) .

وتحاول هذه المذاهب جميعا (تجريد الأشياء من جميع القيــم فاضلة كانت أم غــير فاضــلة وتقيسهــا بمقياس الحالية الراهنة (١)) ، ولا شك أن هنــــاك خلاف واسع ، وتباين أكيد بين طبيعة هذه المجتمعات وما تضطرم فيـــه من أحاسيس وعـــواطف ، وبين المجتمعات الإسلامية التى تشكلت أساسا والدين جزء منها ، والأخلاق رباطها الذى يربط مختلف القيـــم ويمثل جوهرها .

ومن هنا كان لا بد من الدفاع عن المقومات الأصيلة للفكر الإسلامى والثقافة العربية وتحدى هذه التيارات الدخيــلة .



(١) من بحث للدكتور عمر حليق — الرسالة سنة ١٩٥٤

وقد صور الدكتور محمد أحمـد الغمراوى موقف الفنون من الحياة وتطابقها مع الإسلام فقال :

« إذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب أن لا تخالف أو تناقض دين الفطرة ، دين الإسـلام فى شىء ، فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا الى رذيلة من أمهـات الرذائل التى جـاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، وإذا خالفت الفنـون الدين فى شىء من هذا فهى بالصورة التى تخالف بهـا الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة » .

●●●

- ١٣ -

لقـــــاء الأجيـــــال

هل بين الأجيال صراع أم لقاء ، ان هناك محـــاولات فرضـــها التبعيـــة لـــبرتكـــولات صهيون ، ودعوة التغريب ولمحـــاولة تدمـــير مقومات المجتمع الاسلامي ، تحاول أن تفرض مفهوم الصراع بين الأجيال بينما الواقع يقرر أن ما بين الأجيال لقاء لا صراع .

ان مفهوم الاسلام يرى ان هناك تكاملا بين جيل وجيل ، قوامـــه تكامل بالتلقى وعطـــاء بالتجربة .

لقـــاء الأجيـــال

يتردد القـــول بأن ما بين الأجيـــال هو صراع ، وخصومة ، وتضارب وتعارض ، والحـــق أن ما بين الأجيال ليس كذلك ، ولكنه لقاء وأمانة ، وبناء على الأساس وفكر متصل وارتباط بين القديم والجديد ، والماضى والحاضر ، وإخراج للحى من الميت ، وعطاء من صاحب التجربة وطموح من الجيل الجديد فى أن يكسب كل ما سبقه اليه الجيـــل الماضى ليزيد عليـه وينميه .

ولقد علت فى ظل التحديات التى يمر بها العــرب والمسلمون ، وهى تحديات الغزو الثقافى والحـــرب النفسية وأثر النكسة كلمات غاضبة صاخبة ، بعيـدة عن الحق والعقل والمنطق وواقع التـاريخ ، تريد أن تفرض الصراع بين الأجيال وتحاول أن تصور التطور التاريخى والمتصل بين جيل وجيل ، على أنـه صراع بينما تكشف النظرة الصادقة المنصفـــة المستأنية إن

هناك لقاء متصلا ، على طريق واحد ، رسمته القيم الأساسية لهذه الأمة ، هذه القيم التى ما زالت ثابتة قائمة بالحق والعدل ، وعلى التوحيد والإيمان ، تبنى الأجيال جيلا بعد جيل وتنمى علائقه وروابطه وتنفى عنه الدخيل والغريب والفاسد ، وتؤصل الأصيل والصحيح ، وترد دائما محاولة الافناء والاحتواء والتغريب ، وتصحح المفاهيم وتحرر القيم ، وهى رسالة دائبة لا تتوقف منذ عرف المسلمون والعرب أن لهم عدوا قائما على حدودهم ، يريد أن يبطش بهم ، فهم قد صنعوا فكرهم على أنه فكر مقاوم قادر على الأخذ والعطاء له طبيعته المستقلة الذاتية المفتوحة فى نفس الوقت دون أن تجمد أو تذوب ٠

* * *

لقد تنبه الشباب الى تلك الحملة الضارة التى تقودها قوى الاستعمار العالمى لإيقاع الخصومة والصراع بين الأجيال والتى تحرض الأجيال الجديدة على أن ترفض التجربة والعبرة والفكر الماثل وتدعوها لأن تتقدم فى فراغ وظلام بدعوة ضارة ، هى أن للجيل الجديد الحق فى اختيار طريقه دون وصاية أحد ٠

ومن الحق أن الأجيال الماثلة لم تقم بواجبها فى تقديم تجربتها وخبرتها الى الأجيال الجديدة ، وأن الأجيال الجديدة واجهت اضطرابا كبيرا ونقصاً شديدا تحت تأثير عوامل كثيرة دفعت الشباب الى التماس الخطأ لأنه لم يجد التوجيه الشديد الى الخير ، ولكن ليس معنى هذا أن ترفض الأجيال الجديدة القاعدة التى تبنى عليها وجودها الحى ، فذلك حقها الذى تطلبه وتصر عليه حتى يقوم بناؤها على الأساس .

ذلك أن أى بناء لابد أن يقوم من الواقع وأن ينمو امتدادا لما قام فعلا ، إذن فلا سبيل لها أن تنفصل عنه ، وإنما هى تبدأ منه أساسا ثم تنمو به وتجدده لتضيف لبنة .

وهى فى الحق تعرف أن هناك القوائم الثابتة التى لا تتغير مع الزمن ، والقيم الأساسية القادرة دائما على الالتقاء مع كل عصر وجيل ، وأن هناك عناصر التغيير والتحول والتطور التى تتجدد ، وهذه هى التى سوف يتاح للأجيال الجديدة أن تنميها وتحولها بما يوائم الزمن والبيئة ومتطلبات العصر .

* * *

ومن الحق أن يقال إن الأمر بين الجيــــل المــاثل والجيل القادم ، ليس فيه وصــايا وليس فيه صراع ، وإنما فيه تنوير وتفسير وعطاء وكشف للتجــارب التى مر بها هذا الجيل بما يضىء للأجيال القادمة طريقها الصحيح .

وهى عدة المسافر ، وزاد المتأهب لحمل الأمانة ، وهى مراقبة النبت الصغير حتى ينمو وحمــايته من العطب وتسديد خطاه فى مرحلة تقصر فيها العيون عن النظرة البعيدة والقدرة على الإحاطة بالأبعاد المتعددة للمسائل والقضايا .

وتلك هى عملية التكامل بين الأجيال : أخذا وعطاء ، أما القول بأن الأجيال الجديدة تستطيع أن تشــــق طريقها دون أصالة القائم ، وأرضية الموجود ، وأساس البناء ، فتلك دعوى زائفة يراد بها إفراغ المعانى من مضامينها ، وإخراج الوقائع عن أصولها فليس هناك سبيل الى الانفصال بين الحاضر والمستقبل ، شــأنه شأن استحالة الانفصال بين الماضى والحاضر .

* * *

ولقد تحاول دعوات هدامة الى هذا الفصـــل لأن طبيعة فكر هذه الأمم يقوم على استقلال القيـــم أو تفرقها ، ولكنه فى الفكر الإسلامى والثقافة العـــربية عسير أشد العسر ، ذلك لأن هذا الفكر وتلك الثقـافة تشكلت بطبيعتها على قاعدة التـكامل لا التجـــزئة والشمول لا الانفصال ، والنظرة العاقلة البعـيدة عن المؤثرات المضلة تنتهى الى هذه الحقيقة ٠

وكل وحدة فيه تسلم الى الوحدة الأخرى وتتأثر بها وتجمعها جـامعة واحـــدة قوامها التوحـيد وطابعها الأخلاق ، والإيمان بالله وأخلاقية القيم ، هى خـلافنا الأساسى مع الفلسفات والمناهج التى تدين بها بعض الأمم التى يتحدث عن صراع الأجيال ٠

* * *

هذه الفلسفات المـــادية هى التى صـــنعت ذلك الانفصام فى شخصية الأمة ، وألقت تلك الظـــلال من القلق والصراع ٠

أما وقد تشكل فكرنا منذ أربعة عشر قرنا والإيمان بالله جزء منه ، والأخلاقية التزام كامل يطبع مختلف

مناهج الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية والقانون ، فنحن فى حصانة من اقتحام موجات القلق مادمنا نعتصم بقيمنا ، هذه الموجات التى تمثل أزمة الإنسان المعاصر ، والتى لا تجد طريقها الى النفس البشرية إلا إذا فصلت القلب والعقل والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ومن أخطر ما تروج له الدعوات الضارة التى صدرت أساسا من توجيهات بروتوكولات صهيون والتى تشكل (الأيدلوجية اليهودية المدمرة) الدعوة الى كراهية الأخ الأكبر .

* * *

ولا شك أن هذه المحاولة لتجسيم الرابطة بين الأب والأسرة هى نتيجة من نتائج التغير النفسى الذى قدمه (فرويد) من أجل تدمير القيم الإنسانية ، وأريد به إذكاء الخصومة فى الأسر بين الأب والأبناء .

ولقد صاغ الإسلام هذه الرابطة على نحو بناء قوامه مسئولية الآباء ومحبتهم وإيمانهم بالأجيال الجديدة من ناحية وقدرة الأجيال الجديدة على التلقى بالصبر

والثقة فى الآباء ، وإيمان بأنهم يحمونهم من العثار فى مرحلة هم فى أشد الحاجة فيها الى التوجيه ، وأن هذه الضوابط التى قد يقسون عليهم فى التزامها هى أهم الركائز التى سوف تقيم شخصياتهم قوية صامدة فى وجه الأعاصير والأهواء ، بل لقد أثبت علماء النفس المنصفون من غير مدرسة فرويد ، أن هذه الحماية والرقابة فى التزام هذه القيود لم تترك فى النفس البشرية أثرا ما ، يدفعها الى المرض أو التحدى أو الأخطار على النحو الذى يحاول به (فرويد) وأعوانه، ولا يقصدون به الحق أو الخير وإنما يريدون به خلق جو من الفزع يدفع الآباء الى ترك أسلوب التوحيد والحماية والتفريط فى أمانة الرعاية على النحو الذى نسمع به فى كثير من المجتمعات اليوم .

إن هناك محاولة خطيرة لفرض مفاهيم مضادة للنظرة الإنسانية لا بالإقناع والعقل والتجربة والإحصاء العلمى ، وإنما بالتخويف والإرهاب من خطر وهمى غير موجود ، كالقول بأن الإبطاء فى إطلاق الغرائز يصيب بالأمراض ، بينما أن الأخلاق لم تكن إلا قيداً منظما أو وقاية ضابطة لا خوف منها ، ولقد بلغ العلماء أبعد من ذلك حين قالوا :

إن ما نسميه غرائز إنما هى ميول لدنة يمكن توجيهها أية ناحية وأن (٩٩ فى المائة) مما نسميه غرائز إنما هى اتجاهات اجتماعية قد غرسها فينا المجتمع برجوع انعكاسية مكيفة ، فالمجرم يرتكب جريمته بعادات ذهنية وعاطفية واجتماعية ، وليس بغريزة موروثة وكذلك الأمر بالنسبة لكل تصرف خاطىء كالعادات الضارة ، فهذه كلها أمور تتسع النفس الإنسانية للرجوع عنها ولو سارت فيها طويلا دون أن تفقد شيئا ، بل إن هناك من القدرات فى النفس الانسانية ما يمكنها من الانصراف عن عادات أصيلة تحت تأثير الإيمان والتقوى دون أن يحدث ذلك أى ظلم أو رد فعل .

* * *

والواقع أننا لو التمسنا مفهوم الإسلام فى شأن العلاقة بين الأجيال لانهارت تحديات كثيرة ، ولكن مصدر الخطر والاضطراب هو التماس مفاهيم وافدة لمجتمعات أخرى دون تقدير الفوارق البعيدة والمعارضة فى تركيب الأمم وأمزجتها وأخلاقها ، والفوارق بين الأزمنة والعصور والبيئات .

●●●

- ١٤ -

الضيـــــــاع

تضطــرم كــتابات التغربيين بكلمات الضياع والقلق ، بينما لا يقر الاسلام هذه المفاهيــم فى جوهره الصحيح ، ان النظــرة المادية هى التى أحدثت هذا الاضطراب النفسى الذى حرم النفس الانسانية من الثقة والايمان ، أما الفكر الاسلامى فهو يؤمن بثقافة القلب ، ممتزجة بثقافة العقل، ومن هنا لا تقع أزمة الضياع .

الضــياع (١)

من المصطلحات التى طرحت على الفكر الإسـلامى مفهوم (الضياع) على نحو العبارات التى يرددهـا بعض الشباب من عبارات ترجع فى الأصل الى مصادر وافدة ، ذلك أن الأمة العربية الإسلامية اذا التمست مناهجها وقيمها فإنها لاتخضع له ، مثل هذه المذاهب والنظرية التى تتعارض مع طابعها وتشكلها الأساسى والجذرى وفطرتها الأصيلة ، وتراثها الحى الذى أقامه الإسلام على أساس التوحيد .

والإيمان والأخلاق والترابط الواضح بـين العقـل والقلب وهو ترابط مستمد من تركيب الإنسان نفسـه فهو موافق ، يحول دون التمزق أو الضياع الذى يكون مصدره فى الواقع ذلك الانفصال بينهما وإعلاء أحدهما ووضع الآخر بعيداً عن الضوء .

إن العامل الأول الذى يحول دون خضوعنا لمثل هذه

---

(١) مصطلح الضياع : مصطلح وجودى يراد به تصور فقـدان الثقة فى المجتمع .

المذاهب هو تكامل نظرتها الى الحياة وتلك الوسيطة التى تتسم بها طبيعتنا وسيطة تحول دون الانحراف أو التجمد ، فنحن لا نتحيز لجنب العقل وعالم الشهادة وحدهما ، ولكنا نؤمن بالعقل والقلب أسلوباً للمعرفة، ونقيم عالم الشهادة والغيب معاً متكاملين ، ونؤمن بالبعث والجزاء ، ولذلك فنحن لا نسرف ونغـرق فى فلسفات الحسيات والماديات والغـرائز ، ولا نسرف كذلك ولا نغـرق فى فلسفات الزهـد وتعـذيب النفس والرهبانية ، ومن هنا فإن فكرنا مطبوع دائماً بطابع السماحة والتفاؤل والتطلـع الى رحمة الله ، وهو مـا يحول دون التمزق والضياع ٠

●●●

بينما يقوم التمزق والضـياع فى بيئـات قصرت مفهومها على النظرة المادية وحدها وأنكرت الإيمان بالله ، وعزلت المجتمع عن الالتزام الخلقى ، ولقد أقام الفكر الإسلامى مستمداً من القرآن ميزاناً ظـل حيـاً على مدى العصور لم يسقط أبداً ، ذلـك هـو ميزان التـكامل والوسيطة والحركة ، وذلك القسطاس الذى كان قادراً دائماً على تعديل مسار الفكر الإسلامى اذا

اتجه نحو التجزئة أو الانحراف أو التوقف ، وقد كشف التاريخ فى موجاته المتصلة وحركاته المتوالية أن مصدر الخطر على المجتمع الإسلامى إنما يجىء من التخيف أو الانحراف عن مفهوم الإسلام أو الانفصال عنه فى نظريته المتكاملة للكون والإنسان والمجتمع ، وهى نظرة قوامها التوحيد ومنجها العدل والحق ، وروحها الإيمان وطابعها الأخلاق فى نطاق من الوسيطة الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب والآخرة .

وهذا هو مفتاح « أزمة التمزق والضياع » التى فرضتها فلسفات الوجودية والفردية حين طرحت انفصال الدين عن المجتمع والأخلاق عن الحياة ، ولقد كانت أصالة فكرنا وعمق جذوره وذاتيته الخاصة ، كانت دائما عامل قوة وإيجابية قادرة على شجب تيارات التمزق والضياع .

إن أخطر ما يلقى الى الأجيال الجديدة من سموم الأفكار التى لا تصمد لحظة واحدة أمام ضياء الحق أو نور العلم ، تلك النظرية التى تقول بأن الأخلاق نسبية مع كل عصر أو بيئة .

●●●

وهى نظرية تهدف الى القول بأن هذا العصر الذى طلعت فيه المادية والحضارة التكنولوجية من شأنه أن يفهم « الأخلاق » فهما مغايراً لمفاهيمها التى جاءت بها رسالات السماء ٠

والحق أن الأخلاق ترتبط بالإنسان ، ذلك الكائن الحى الذى يقوم تركيبه على الروح والجسم والعقل، والذى لم تتغير هذه المواد فى تركيبه منذ استوى على هذه الأرض ، فالأخلاق مرتبطة به هو وليست مرتبطة بالصورة المادية للمجتمع ٠

ومن هنا كانت صياغة الأخلاق التى تحمى وجوده وتضبط مسيرته وتدفع عنه الأخطار ، وتحفظه بناءاً سليما قادرا على العمل والدفاع عن أرضه وصنع الحياة ، كانت هذه الصياغة ملائمة تماما لتركيبه ونوازعه ، وأبرز مفاهيم الأخلاق بالنسبة للإنسان « الالتزام الأخلاقى » وقد أخطأ « دور كليم » حين أشاع نظرية مسموعة تقول : إن الأخلاق خاضعة لظرو فالحياة وأن نظام الأسرة ليس نظاما فطريا، هذه النظرية الخطيرة التى ارتبطت بالإيدلوجية

اليهودية لتدمير الإنسانية (وجماعها : التفسير المادى للتاريخ والتفسير الجنسى للمجتمع والوجودية) ٠

●●●

هذه المحاولة لتجريد الأخلاق من فكرة الإلزام الواجب والضمير الخلقى ، هى أخطر المحاولات التى صنعت فكرة الضياع والقلق والتمزق ٠

والحق أن الأخلاق لا توجد كقوة فاعلة فى المجتمع دون فكرة الإلزام ، إيمانا بأن الإلزام هو العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور عليه قضية الأخلاق، والواضح أن زوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العلمية التى تهدف اليها الأخلاق ، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، واذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة ٠

ومفهوم الإلزام يقتضى أن تكون الفضيلة قوة كامنة، اذا ملأت نفس المرء حفزته الى العمل النافع ، حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية فى النفس الى قوة حسية ٠

ويكون الخير الأخلاقى بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع ، وقد دعا القرآن الى الإلزام الخلقى ، وكشف عن أن النفس البشرية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها([1])».

وقد ألهمت النفس الإنسانية الحسن الخلقى، فعرفت طريق الفضيلة والرذيلة « وهديناه النجدين ([2]) » .

وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر ، ولكن الإنسان قادر على أن يردها ويستعيد إرادته وسيطرته على قيادها ، وفى النفس قوة كامنة لتقبل التوجيه والنصح ، وهى تحدد للإنسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا هى أسمى جزء فى نفوسنا وهى « العقل » ، وسلطة العقل هى سلطة الشرعية الوحيدة .

ولا شك أن أزمة الإنسان الغربى قد كانت موضع دراسة الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ، وهم بين

---

(١) سورة الشمس : ٧ ، ٨

(٢) سورة البلد : ١٠

جاد منصف يريد أن يلتمس لها حلا حقيقياً فى ضوء العلم والتجرد الخالص ، ومنهم من يستهدف وضع حلول من شأنها تدمير النفس الإنسانية وتمزيقها ، وقد علت هذه الأصوات الأخيرة بالرغم من زيف حلولها ومذاهبها ، لأن قوى الأيدلوجية الصهيونية وغيرها من القوى المناوئة للإسلام كانت من وراء نشرها والإلحاح عليها ، بينما اختفت سريعاً كل المحاولات الجادة ، ويرى هؤلاء المنصفون أن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد غير قادر على حل مشكلة الإحساس بالغربة أو التمزق والضياع ، فإن هناك إمكانيات أخرى فى الإنسان لابد من استغلالها .

والإمكانيات تنحصر فى قدرة الإنسان على الاستفادة من قوى ثلاث : هى قوة الإرادة ، وقوة العقل ، وقوة العاطفة ، وأنه لا بد من إيجاد الوحدة بين هذه القوى الثلاث باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسى والتكامل النفسى ، وأن هذا الاضطراب القائم تحت أسماء الغربة والتمزق والضياع إنما نتج أساسا من ضعف العقيدة الدينية ، التى قلل من أثرها سيطرة

التفكير العقلى الصرف ، فنحن بحاجة ماسة الى إشباع هذه العاطفة الدينية إشباعا نجد فيه الملاذ الذى نبحث عنه ، وأن غياب العقيدة الدينية والإيمان بالله الذى لا يغنى عنه شىء ، كان عاملا هاما فى هذه الأزمة ، ولذلك فإن حاجة الإنسان الى إشباع عاطفته الدينية أمر لا ينقطع (١) » .

* * *

ويرى كولن ولسن فى كتابه الغريب أن هذه الأزمة هى أزمة الإنسان الحساس العاقل ، الذى فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يسد حاجاته العاطفية التى كان الإيمان مركز إشباعها ، وهى أزمة لعب العلم والتفكير العقلى فيها دوراً بالغ الأهمية أدى فى نهاية الأمر الى ضعف العقيدة الدينية ، وعنده أن أحد نتائج هذه الأزمة هى إشهار الإفلاس العقلى والتفكير العقلى .

ودعا كولن ولسن الى ضرورة تحقيق اتساق أو توازن بين قوى الإنسان الثلاث : الجسم والعقل

---

(١) دكتور مصطفى بدوى ــ مجلة كلية الآداب ١٩٥٨

والعاطفة ، وذلك لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ ، ويرى كولن ولسن أن على الإنسان أن يتحرر من معتقـدات وهمية كثيرة أهمها فكرة (الخطيئـة الأولى) التى تسيطر على بعض الناس ، وتقف حائلا دون رؤية الحقيقة .

ويصل كولن ولسن الى أعماق الأزمة حين يشير الى الآثار التى أفسدت العقلية الغربية ، والتى تتمثـل فى آثار الكتاب من أمثال جوته (الأم فارتـر) وشـيلر وسارتر وكامو وجيمس جويس وكل هذه الآراء تحاول أن تصور الحياة وقد انعدمت معانيها وقيمها وغاياتها مما أدخل على حياة الناس السأم والإنهاك والانشقاق على النفس بل أدى الى مئات النزوات .

وفى قصـة الغريب للبيركامى ، والغثيان لسارتر تبدو صورة مريرة تقوم على الرغبة فى إنكار كل قيمة للحياة ، وفى كل منهما ذلك الإحساس بالقلق والنفور والتصدع القائم بـين الفـرد والمجتمع ، وفى شـعور الإنسان فجـأة بأنه غريب ، وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن ، ومن هنا يأتيه الإحساس بالغثيان .

ويرى (كولن ولسن) ارتباط هذه الفلسفات بالآثار المسيحية الغربية ، وقد كان بعض أعلام الفكر الدينى يرى أن الشعور بالألم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل الى الإيمان ، والى الوصــــول الى ما يسمى بــدوائر الإيمان العليا ، وبمعنى آخر ينبغى للإنسان أن يمر بعذاب الضمير ، فإن عذاب الضمير الناجم عن الشعور بالخطيئة هو الذى يحقق ما يسمى بالوجــود أمـــام الله ٠

* * *

ويرى (كولن ولسن) أن هذه هى فلسفة كير كجارد، أو من يطلق عليهم الوجوديون المؤمنون ، وهى ترتبط بفكرة الخطيئة ، أما نظرية سارتر وكامى فتصورهــا مسرحية (الله والشيطان) وأبرز معالمها نبذ العقائد الدينية ، ومحاولة القول بخطورتها فى تعويق تقدم الإنسان وتكبيل حريته ٠

وأسوأ ما تصل اليه هى القول بأن « الموجود الوحيد فى العالم هو الإنسان ، مما زلزل إيمان النــاس فى

الغرب فى أقدس مقدساتهم ، وأن الفكر الدينى الغربى هو الذى أفسد فهم الناس لكثير من الحقائق ، ومن هنا كانت دعوة (كولن ولسن) الى نبذ فكرة الخطيئة كأساس للتحرر من الغربة والغثيان ، ويشير « كولن ولسن » الى أن أخطر ما أصيب به الفكر الأوربى هو تأليه العلم وتقديسه ، بل وتسخيره أحيانا فى إشعال الحروب ، وكان طبيعيا أن يؤدى هذا الى خلق الشعور بالقلق المقيم الذى استبد بإنسان القرن العشرين ، حتى أصبح مرضا شائعا وطابعا يميز إنسان هذا العصر ، وقد صاحبه إحساس بعبث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح فى عالم قد يباغته الدمار فى كل لحظة .

وهكذا تقف بعض الأقلام الواعية لتصور أزمة القلق والضياع والغربة فى الفكر الغربى ، وهى أزمة لا تستطيع أن تقتحم آفاق الفكر الإسلامى إلا بصعوبة بالغة ، ذلك لأن عواملها لا تتوافر هنا إلا من باب التقليد المحض ومن باب الغزو الثقافى .

فالإسلام بسماحته الفائقة وروحه البناءة المليئة

بالتفاؤل والإيجابيـــة البعيدة عن كـل تعقيـــدات الاضطراب النفسى تحول تماما دون وجـود أزمـــة « الغريب » فى المجتمع الإسلامى ٠

وأن أخطر ما تقوم عليه هذه الأزمة ، هو مفهـــوم التطور فى الأخلاق ، وإلغاء الالتزام الأخلاقى ، وهما من الأمور التى يتمسك بها الفكر الإسلامى ويعتبرهما أساسا عميق الجذور فى بناء المجتمع ٠

ولعل هذا هو أعمق الفوارق بين الفكر الإسلامى وبين النظريات الفلسفية والمادية الزائفة ، التى تدعو الى التطور المطلق والحـرية المطلقـة ، والتى تفسر العقل والقيم والتقدم على نحو مختلف عن الأصـول التى يقوم عليها الفكر الإسلامى ٠

* * *

ولعل أبلغ تصوير لهذا المعنى ما يقـــوله الدكتور إسماعيل الفاروقى فى مقارنته بين فـكر العنصريـة الصهيونى وبين فـكر الحنيفية العربى الإســلامى : « إن القول بوحدانية القيـم أمر تفرد به العرب ومن

سواهم ، فوحدانية القيم هى نفسها وحدانيــة الله ، وهذه الوحدانية إدراك عربى طرأ على الوعى العربى (نتيجــة الرسالات السماوية) مصطحبــا جانبــه الأخلاقى » .

« على حين أن غير العرب من الشعوب قــد لبثت قرونا حتى بعــد أن أخــذ بالوجــه الدينى من تــلك الوحدانية قبل أن يدرك جانبها الخلقى ، وأعنى بــه وحدة المعيار بين مختلف النــاس بغض النظــر عــن أجناسهم وألوانهم :

« لب هذه الرسالة هى أن الله موجود وأنه واحد ».

« أما وجوده فمعناه عند العقل العربى وجـــود « القيم » وجودا مستقلا عن الإنسان ووجوده ، أعنى أنها ليست من صنع الإنســان كمــا تقتضى ظروف عيشه » .

« ومعناه كذلك عند العقل العربى أن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبثا » .

« أما كون الله واحد ، فمعناه عند العقل العربى :

أن القيم تحمل معيارا واحدا لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان » .

(فالمعيار واحد بكل إنسان أيا كان ، وحيثما كان، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقى ومعيارها الذى تقيس به الحق ، بل الخير خير بالنسبة لكل البشر ، والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » .

« فالقول بوجود الله وبوحدانية الله إذن هو من صميم الاعتراف بموضوعية القيم وبتخليصها من قيود النسبية التى تقر اختلاف المعايير باختلاف الظروف».

« فالإنسان أمام الله ، هو الإنسان لا اختلاف بين فرد وفرد إذا ما قيس الأفراد بمقياس الأخلاق الذى هو مقياس الحق (١) » اهـ .

* * *

وهذا القول بثبات الأخلاق هو حقيقة أعلنتها الأديان المنزلة جميعا وأكدها الإسلام فى وضوح ، وهى

---

(١) كتاب فى مقارنات الأديان : الدكتور اسماعيل الفاروقى

مصل مضاد لكل أخطار المفاهيم المسمومة المنحرفة التى تطرحها أيدلوجية الصهيونية العالمية لإفساد النفس الإنسانية وتدميرها » ٠

ومن هنا يبدو فساد تلك النظرية التى طالما أثارها كتاب التغريب نقلا عن « دور كايم وسارتر وفرويد » والتى تربط الأخلاق بالوسط ، بينما ترتبط الأخلاق بالإنسان نفسه وبتركيبه العقلى والروحى والمادى ٠

وأن أقوى العوامل فى تكوين الأخلاق هى «العقائد» التى تستطيع أن تحول النفس الإنسانية من النقيض الى النقيض ، وأن القول بأثر البيئة أو الوراثة أمر يجىء فى الدرجة التالية ، ولكن العقائد وهى أقوى أثرا فى تحويل الطبائع وتحرير النفوس من آثار البيئات والورثيات ، وليس الإنسان ابن غرائزه كما يدعى أصحاب المذاهب الهدامة ، ولكن ابن عقيدته ، ابن الإيمان ، وقد بدل الإسلام الناس وطبائعهم ، وغيرهم تغييرا جذريا على نحو يستطيع أن يكشفه كل من يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية ، مما يؤكد زيف هذه النظرية ، ويؤكد قدرة العقيدة الصحيحة ، على تغيير النفوس ٠

وقد آمن المسلمون بأن الالتزام الأخلاقى هو طابع كل القيم وقسيمها ، ومن هنا فإن المسلمين لم ينظروا الى الأخلاق على أنها نشاط عقلى أو موضع جـــدال فكرى ، ذلك أن الإسلام جعل من الأخلاق منهجا علميا لإقرار قيم التوحيد والإيمـــان والحق .

●●●

- ١٥ -

الفلـــــكلور

هناك محاولات خطـيرة مطروحـــة لضرب اللغة العربية وبلاغة القرآن وبيانه ، مقـــام هذه المحاولات حركتين : هما حركة الأساطير وحركة الفلكلور ، ما هو الهدف الحقيقى من الدعـــوة الى الفلــكلور فى فكرنا الاســـلامى وأدبنا العربى .

الفلـــــكلور

كانت الدعوة الى إحياء التراث الشعبى (الفلكلور) فى السنوات الأخيرة تستمد وجودها من بعض أهداف ترمى الى تغليب العامية والأزجال والأساطير والقصص الشعبية والأغانى والأمثال العامية على الأدب البليغ ، وإذابة الذوق العربى العام فى ألوان ضعيفة تقلل من قدر البيان العربى ، الذى يتصل أساسا بالعمل على إيجاد مستوى كاف لفهم القرآن الكريم والاقتراب من منهجه ٠

وقد كانت الدعوة الى الفلكلور محاولة لا بأس بها لو أنها خلصت من هذا الغرض الخفى ، ولو أنها بقيت فى حدود حجمها الطبيعى بالنسبة للأدب الرفيع والفنون الممتازة ، أما أن تجرى المحاولات لإعلائها ودفعها حتى تكتسح مجال الأدب البليغ والأساليب العالمية فإن ذلك هو الانحراف الذى يخشى أثره ٠

ومن هنا ارتفعت أصوات كثيرة تحذر من جناية

الأدب الشعبى على الأدب العـام من خـلال مفاهيم منـحرفة ، وهى التى تقول بأن الفلكلور يمثـل روح الشعب وأنه وسيلة الى التفاهم مع الطبقات الشعبية .

وربما رد بعضهم هذا اللون الى المذهب الواقعى .

ومن الحق أن ذلك كله من المغالطـات التى يـراد بها النزول بأسلوب الكتابة ومستوى الفكر ومنهـج العقلية الى المستويات البسيطةالساذجة التى لا تستطيع أن تمثل ذوق الأمة ولا مزاجها ، هذه الأمة التى كانت أكبر مظاهر عظمتها ومعجزة دينها هى البيان .

●●●

والواقع أن هناك لوناً شعبياً فى الأدب له حـدوده وله طابعه ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر عـلى الأدب العام ، الأدب العريق البليغ الذى يستمد وجوده من الوجود الإسلامى العربى الأصيل .

بل إن هذه الألوان من شأنها أن تهدم أعظم عناصر الأدب والفن وهو الجمال والأصالة .

لقد كانت الدعوة الى الفلكلور ، واحدة من دعوات متعددة ، منها : الدعوة الى الميثولوجيا أو الأساطير ، وهما قد يختلفان مظهرا ولكنهما يتفقان غاية .

وقد شابت الدعوة الى الفلكلور فى السنوات الأخيرة أهداف وغايات انحرفت بها عن هدفها العلمى ، فقد اتخذت وسيلة لإذاعة العاميات وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العامية على نحو يراد به خلق تراث عام يمكن من خلاله الإدعاء بالقول بأن العامية لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية ، وهذا ما جرت محاولة القول به ، وجمعه منذ أكثر من سبعين عاما ، وقد بدأ هذه المحاولة القاضى ولمور والمهندس وياكوس وغيرهما (١) .

●●●

لقد بدأت حركة الفلكلور ، كما بدأت حركة الأساطير على أيدى المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب ، الذين حملوا لواء الدعوة الى العامية

---

(١) راجع كتابنا : اللغة العربية بين حماتها وخصومها .

واللغة المحلية ، وألفوا فيها رسائل عديدة ، وجرى في تيارهم بعض الكتاب، وهي محاولة يجب أن نتبين أبعادها وخلفياتها التي تهدف الى إقصاء اللغة الفصحى والبلاغة والبيان العربي عن الأسلوب العام وخلق أسلوب عامي ساذج ، والهدف الأصيل هو إقصاء لغة القرآن عن مكان الصدارة، وتعزيز العاميات في كل مصر وبلد ، مما يؤدي الى تفكيك وحدة الأمة العربية وإبعادها عن جوهر فكرها بإنزالها عن مستوى بلاغة القرآن وآدابه ، كما عمدت دعوتي الفلكلور والأساطير الى استحياء الماضي الوثني القديم البائد ، من وراء عصر الإسلام ، فهي قد ارتبطت بالفينيقية في لبنان والفرعونية في مصر ، والرومانية في شمال أفريقيا ، وكانت تحاول بذلك إحياء قيم ماتت وانتهت ، وتقاليد ومظاهر وأعياد جرفتها القيم الإسلامية وأنهت وجودها ، ولم تعد مرة أخرى اليها، بعد أن جاءها الإسلام بالتوحيد الخالص •

●●●

- ١٦ -

مصـــطلح الضمـــير

هنـــاك مصطلحات كـــثيرة ما تزال تتردد ، تستهدف اخراج الفكر الاسلامى من مقـــوماته وذاتيته وجوهره الأصيل ، من هذه المصطلحات: كلمة النرفانا وكلمة المهندس الأعظـــم ، وكلمات كثيرة أبرزها كلمة الضمير ، التى تتردد كثيرا دون أن تكشف حقيقتها ، ومصـــطلح الضمـــير من التعبيرات التى استحدثتها كتب الأخلاق الغربية، وهو مصطلح أريد به احلال مفهوم أخلاقى منفصل عن مفهوم الأديان المنزلة ، فحيث يدعو الاسلام الى بناء الانسان بالتقوى ، ويجعل منه قـــوة فعالة تحول بين الانسان وبين الشر ، فقـــد دعا كتاب الغرب الى ما يسمى بالضمير ، والضمير بهذا المفهوم لا يشكل الا من خلال مفاهيم البيئة والثقافة والعقيدة ، فاذا تشكل على معنى التحرر من قيم الأخلاق أو اعتبارهـــا نسبية لا ترتبـــط بالانسان ولا بالمثل الثابتة فانما يجرى الضمـــير معها هذا المجرى ، وحينئذ لا يستطيـــع ذلك أن يحقق شيئا على النحو الذى يشكله مفهوم الضمير المرتبط بالأخلاق والعقيدة ، لذلك فان الرأى أن الضمير ينبنى تحت مفهوم ترابط الدين والخلق •

مصـــطلح الضمـــير

وفى هذا المعنى يقول الدكتور عبد الحليم محمود: « لا نجد فى معاجم اللغة ذلك المعنى الأخـلاقى الذى نفهمه من هذه الكلمة فى الوقت الحاضر ، وقد استعمله الغرب كثيرا وأشاد به حينما أراد أن يضع للأخـــلاق أساساً ومقياساً منفصلا عن الدين ، حين أراد الغرب ان يتخلص من سيطرة الكنيسة وأن يخرج عن سلطانها وكان الدين إذ ذاك أساساً ومقياساً للأخلاق ، فإذا أريد التخلص من الدين جرى البحث عن أساس ومقيـاس للأخلاق .

حاولوا أن يستعيضوا عن الدين بوحى الضمـير ، وأن يتخذوا من وحى الضمير الأساس الذى لا يخطىء .

إن الناس فى كل العصور يستثيرون ضمائرهـم ، ولكنها لا تسمعهم جميعاً لحنا واحداً .

وعند ما نوازن بين أحوال الضمير فى العصر الواحد فى أقطار مختلفة فإننا نجد أيضاً فروقا لا تحصى .

ويختلف الضمير باختلاف الأزمنة أو اختلاف المبادىء أو اختلاف البيئة أو اختلاف الثقافات فى البيئة الواحدة .

ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير أنه قد شاع بين بعض الطوائف أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها .

والضمير قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة وبيئة ووراثة وهى تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه وتنقله من بيئة الى أخرى وبحسب الكتب التى تمده بالثقافة العقلية أو التهذيب الروحى وبحسب أخلاق الأصدقاء الذين يلازمهم الإنسان فى حياته .

ليس الضمير قوة فطرية معصومة بطبعها ، بل هو متأرجح لا يستقر له قرار .

إن « الأخلاق » هى المقياس الذى يلجأ اليه «الدين» ويستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه هو وحده المعصوم والإسلام قد أتى فى الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس المرهقة والأفئدة المتعطشة للاستقامة والإنابة .

أما صلة الدين بالضمير فهى صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة ، صلة هيمنة تستمر مدى الحياة فإذا زالت اختل الضمير .

● ● ●

خـــاتمــــة

إن الفكر الإسلامى لا يزال هو أقوى الحصـــون القادرة على المقاومة ، وإن أكبر الأخطار التى تواجه العالم الإسلامى والأمة العربية إنما تجىء من الغزو الثقافى والتغريب والحرب النفسية .

وإن أخطر الأخطار التى تواجه الفكر والثقافة هو محاولة فرض مفاهيم وافدة على القيـــم ، كبديـــل للمفاهيم الأصيلة المستمـدة من جوهـــر شخصيتنا ، والصادرة عن عقائدنا ، والمنبعثة من مزاجنا النفسى وذاتيتنا ، هذه هى أخطر الحروب التى تحتـاج الى وضع كل المصطلحات والمفاهيم تحت ضوء الإسلام ، لكشف الزيف ولتصحيح الأخطاء ،،،

أنور الجنـدى

الفهـــــرس

● ● ●

كلمـــة الإشراف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، صلوات الله وسـلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد :

فإن الإسلام كثيرا ما تثار حوله شبهات من الحاقدين والموتورين ، وهى شبهات دحضها علمـاء الإسـلام وأبطلوها بالدليل والبرهان ٠

وهذا كتاب من الكتب التى تعالج هذه القضـايا وترد عليها فى عبارة قوية وأدلة باهرة وأسلوب شيق يمتاز به مؤلف هذا الكتاب ٠

نرجو الله أن ينفع به وأن يجزى مؤلفه خير الجزاء٠
والله الهادى الى أقوم السبل ٠

طوسون ابراهيم

رقم الايــداع ٣٧٠٧ / ١٩٩٦

I. S. B. N. 977 - 5001 - 26 - 9

مطبعـــة الأزهـــر الشريف

٧٠٠٠ / ٣ / ١٩٩٦

الكتاب القادم :

التفسير ورجاله

لفضيلة الأستاذ

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

الثمن ٤ جنيهات

طبع بمطابع الأزهر ال…